

الطبعة الثالثة

١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م

مطابع
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

محمد الغزالي



الطبعة الثالثة

١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م

مطابع
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

بسم الله الرحمن الرحيم

« فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ . . . . »

« وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ »

مقدمة الطبعة الثانية

الإسلام فى أوطانه

جرت هذه الكلمة على لسان كثير من الساسة والرؤساء فى بلادنا « إن الإسلام يعصمنا من الشيوعية ، وفى مبادئه المثلى غناء عن الأفكار التى غزت أقطاراً أخرى من العالم » .

ونحن أعرف الناس بصدق هذه الكلمة وأعرف الناس — كذلك — بأن الذين قالوها رجال كذبة ، لا يخلصون للإسلام ولا يسعون لنفع الأمة البائسة بتعاليمه الحانية الرشيدة .

ويذكرنا موقف هؤلاء الزعماء من الإسلام بموقف المنافقين القدامى من رسوله العظيم : « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا : نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ . وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » .

إن الإسلام حصانة ضد المبادىء المتطرفة حقاً . ولكن ما هو هذا الإسلام الذى يعصم بلاده ضد الفلسفات الهدامة ؟

أهو هذه الآيات المكتوبة بين دفتى المصحف حبراً على ورق لا يسمع لها أمر ولا يجاب لها نصح ؟

أهو هذه الأحاديث المهملة من سنة رسوله الكريم ، لا تتخذ منها أسوة ولا يقترب نحوها خطوة ؟

ومن هم أولئك الأوصياء على هذا الإسلام ؟ الذين يملأون أفواههم باسمه ورطوبة الخمر لا تزال تدور فى أشداقهم ؟ أو الذين يقضون أعمارهم فى الملاهى ولا يعرفون الطريق أبداً إلى بيوت الله ؟ فإذا عرفت لأحدهم صلاة فهى

ضريبة أداها مرغماً ليمسك بها صلته المزوّرة بهذا الدين المزعوم .

إن الإسلام حقاً سياج لأتباعه ، يحميهم من كل ما يرزؤهم فى معاشهم ومعادهم . لكن متى تتم هذه الحماية ويحكم أمرها ؟

إذا قبلت توصيات الإسلام فى نواحى الإصلاح العام ونفذت بأمانة ودقة .

أما أن تقصى التربية الدينية من برامج التعليم .

أما أن تقصى التشريعات الإسلامية من ميدان القانون .

أما أن تقصى القواعد والمبادىء المالية الإسلامية عن شئون المجتمع .

أما أن يعزل الإسلام عن الحكم والتوجيه والقيادة . . . ثم يقال : إن الإسلام سوف يحصننا من الشيوعية . . . فهذا هو النفاق البارد !

إن الإصلاحات التى يقترحها الإسلام لمحاربة الفساد المنتشر فى جنبات الأمة الإسلامية ، تحارب مثلما تحارب الشيوعية الآثمة أو أشد ! ومع ذلك فإن انسلاخ الوجوه من قشرة الحياء يُسوّل للساسة الكذبة أن يقولوا : إن الإسلام سيحمى أتباعه من الشيوعية . ولن تقر عين الشيوعية بشىء كأن يكون خطنا الدفاعى بإزائها على هذا الضعف والاضطراب .

شرف الدعاة إلى الإسلام مهدد :

يوجد فئات من الناس يعملون لخدمة الإسلام هنا وهناك . فى مقدمتهم أو من بينهم العلماء المختصون بالثقافة الإسلامية والعبادات الشخصية .

والعبء الذى يقع على رجال الأزهر فى هذا المضمار كبير وحسابهم عليه عسير .

والمعروف من نصوص الإسلام أنه يحارب المنكرات كلها . وأنه يحارب صدورها من أفراد الأمة جميعاً . فإذا حدث أن علماء الدين هاجموا منكراً بعينه وسكتوا عن منكر بعينه ، أو ثاروا لصدور هذه المنكرات من شخص ،

وسكتوا إذا صدرت هى نفسها من شخص آخر . فهم — بلا ريب — مؤاخذون على هذا التفريق والتمزيق لتعاليم الإسلام . فضلا عن أن هذا الموقف المتناقض سيهبط بقيمة الحق فى كلامهم يوم تستدعى الأحوال أن يقولوا للجماهير أى كلام .

ولعل هذا سر انصراف الطوائف المختلفة عن الدروس والمواعظ التى تبذل لهم كل يوم بالمجان مع كثرتها وقوتها .

***

إننا نتساءل عن سر هذه المدنة القائمة بين كبار الشيوخ فى الأزهر ، و بين طبقة الكبراء فى الشرق الإسلامى المعذب ؟ إن الأولين مكلفون ببذل النصح وسوق الإنذار ، والآخرين تنوء كواهلهم تحت أثقال فادحة من التفريط فى الواجبات واغتيال الحقوق والحرمات .

ومع ذلك فليست بين الفريقين حرب معلنة بل صداقة نامية على مر الأيام ! .

آه . . لو أمسك أحد أولئك الشيوخ الفضلاء بتلابيب واحد من هؤلاء الكبراء . وهو يسرق من أرض الشعب أفدنة أو من مال الدولة قروشاً . . ثم فضحه — باسم الإسلام — على رءوس الأشهاد . . إذن لتأخرت الشيوعية ألف ميل إلى الخلف وقفز الإسلام ألف ميل إلى الأمام .

ولكننا لما عجزنا عن النهوض بذلك الواجب ، واحتبست الكلمات فى حلوقنا ، انقلبنا إلى العامة والدهماء نعظهم بالخطب الفياضة والمقالات البليغة .

يحكى أن المعرىّ مرض — وكان رحمه الله نباتياً — فلما رأى الطبيب هزاله أمر أن يذبحوا له ديكا لعله يقوى بأكل اللحم . وجىء بالديك مطهياً

إلى أبى العلاء فتحسسه فى أسف . ثم قال : استضعفوك فوصفوك ! هلا وصفوا شبل الأسد ...؟ وامتنع عنه .

وبرغم قصة أبى العلاء هذه . فسيترك الخاصة نغير نكير ، ويتوجه إلى العامة النذير تلو النذير ، ألا يغضبوا الله العلىّ الكبير !!

* * *

وفى الفترة الأخيرة وقعت أحداث عميقة الدلالة بين أصحاب الإقطاع ورقيق الأرض انتهت بقتل عدد من الفلاحين فى « كفور نجم » و « بهوت » و « كفر البرامون » كما هوجمت بعض القصور والمخازن وأشعلت فيها الحرائق .

ولا شك أن « النيابة العامة » وحدها هى المختصة بتحقيق الناحية الجنائية فى الموضوع ، ثم إحالتها إلى القضاء

بيد أن هناك ناحية إنسانية حية لها وزنها الأكبر فى هذه الأحداث المتشابهة . وأعتقد أنه كان على كبار الشيوخ — باسم الإسلام — أن يتحركوا لها ولو برسائل تعزية لمن سقطوا صرعى

فإن الناس يحصون على كبار الشيوخ رسائلهم إلى الكبراء فى أتفه المناسبات .

إننى أقترح ذلك لأسد الطريق أمام المبادىء الهدامة وأنتزع الثقة من ذويها . ولن يتم شىء من ذلك بالضغط والكبت .

* * *

هب أن معتدياً لطم ضعيفاً وأخذ منه شيئاً ما . . وتطلع المسكين يمنة ويسرة .. فوجد رجلين أحدهما شيوعى كافر والآخر مسلم من هؤلاء الدهاقين الذين يقولون ولا يفعلون ، أو على الأصح لا يقولون شيئاً .

فأما الشيوعى فقد احتج على ما وقع وبدأ يعرض عوبه . . وأما الكاهن الآخر فقد أسرع مسيره . وهو يقول : يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ! ! ! أليس هذا هو الشيطان الأخرس — كما سماه نبى الإسلام ؟ — أليس هذا الجبان الفار فى معركة الشرف هو أول من يمد للشيوعية ويغرى الجهلة باعتناقها.

إننا نصرح فى وجوه الكبار من علماء الأزهر بأن الإسلام فى خطر وأن شرف الدعاة إليه مهدد : وأن سكوتهم حيث تجب الحركة وحركتهم حيث يجب السكون خبال يحملون وزره آخر الدهر .

الإصلاح الداخلى أولا :

لقد تأكد لى أن مصر هى حجر الزاوية فى نهضة العالم الإسلامى . وأن القوة التى تسرى فى أوصالها تنضح على جاراتها الأخرى بالحياة والنشاط وهــذا هو السبب الأصيل فى عناد الصليبية الغربية وضنها على بلادنا بحقوقها المقررة

وعندى أننا نتعلق بالوهم إذا كنا سنربط الإصلاحات الكبرى بجلاء الإنجليز — من تلقاء أنفسهم — عن وادينا العظيم . فإن الإنجليز لن يخرجوا إلا مكرهين ، أى يوم يجدون تكاليف بقائهم فى مصر أفدح من أن يحتملوها وهذه لن تتم إلا إذا دعمنا نهضتنا الداخلية ، ورفعنا مستواها المادى والأدبى أضعاف ما هو عليه الآن .

وقبل أن نفاوض الإنجليز على قضيتنا نريد أن نفاوض أنفسنا : هل نحن مستعدون لإجراء هذه الإصلاحات المنشودة أم لا ؟

* * *

إن تدبير المال والأعمال والرجال هو قوام مجدنا وركيزة بنائنا .

فاين تذهب اموالنا ؟

إن المصطافين من كبرائنا ينفقون فى مواخير فرنسا نحو عشرين مليوناً من الجنيهات كل عام .

فهل سنضع الحواجز أمام هـذا السيل الدافق من ثروتنا القومية بعد الجلاء ؟ ولماذا لا نضعها الساعة ؟

وأين الأعمال التى تستغرق أوقاتنا ؟

إن الفراغ يلتهم أوقات الفقراء والأغنياء عندنا حتى لنحسب الزمن أهون ما لدينا من متاع . وفى القاهرة مئات ومئات من الأندية التى تؤوى المتسكعين سحابة النهار وقطعاً من الليل .

وأساليبنا فى الحياة لا تـكوّن شعباً يسود فى الحياة .

كنت أزور إحدى القبائل فى فلسطين . فرأيت بضعة عشر رجلا يتوافرون على صنع القهوة بالطريقة الفريدة التى لا يستجيد البدو سواها ! فعرفت واحداً من عشرات الأسباب التى أضاعت فلسطين من العرب .

هذا الجهد الإنسانى الضائع عندنا سدى يقابله من الناحية الأخرى قوم يشحون بالدقيقة على اللهو ، وينطلقون كادحين كأنهم جن سليمان لاستعادة ملك سليمان ! . . ملك إسرائيل . . !

وأين الرجال الذين نعدهم لما نبغى ؟

لقد كنت أقرأ أنباء البترول فى إيران . وأنا أتميز من الغيظ . لا لأن انجلترا تحق الباطل وتبطل الحق بجبروتها فى البر والبحر والجو . فإن الأمة المستقلة تحتقر قوى العالم لو تجمعت ضدها تريد أن تـكيد لها وتعتدى عليها .

ولـكن الذى غاظنى أن إيران كانت تستجدى الإخصائيين فى صناعات البترول من أوربا وأمريكا .

لأن الإخصائيين فى هذه الأمور لا يوجدون فى مصر أو العراق أو إيران.

إن لدينا إخصائيين فى الاستمتاع بالحريم ومد الولائم وتعذيب العمال فقط .

أين الرجال الذين نعدهم لمستقبل مجيد بدل هذا الحاضر المنكود ؟

ألا فلنعد إلى أنفسنا نفاوضها قبل كل شىء لتحقيق هذه الأهداف ، فإذا ماطلتنا نفوسنا فلنقصر ملامنا لمن يستبيحون هضمنا . . .

* * *

سيقول البعض إن الاستعمار الأجنبى مصدر هذا البلاء كله ، فإذا طردنا عصاباته تحررنا مما نشكو .

أما أن طرد هذه العصابات المحتلة سيكون يوم فرحتنا الكبرى ، فذلك مالا يختلف فيه اثنان . كذلك لا يختلف عاقلان فى أننا مقصرون تقصيراً واضحاً فى الإعداد لهذا اليوم وتقريب أجله . . .

وفى مقدورنا أن نخطو خطوات حاسمة إلى غايتنا المرجوة ، بيد أننا نقدم رجلاً ونؤخر أخرى . بل إننا بعد الأزمات الدستورية والأوامر العسكرية والقوانين الرجعية الأخيرة نتأخر سراعاً إلى الوراء ، وهذا وذاك جعل شهية الإنجليز تنفتح لاستئناف القضم والهضم مرة أخرى .

من حقوقنا وحرياتنا . . .

مصارحة ! !

إن الإسلام ، ولا شىء غير الإسلام ، هو الأمل الفذ لنجاتنا من التحالف الذى انعقد أخيراً بين الصهيونية والصليبية الغربية ، وكشف النقاب عن وجهه الوقاح فإذا هو وجه شيطان مريد ! والإسلام الذى ندعو إليه . هو إسلام محمد بن عبد الله . أعظم مقرر للاشتراكية الاجتماعية والديمقراطية السياسية فى الأرض وليس هو ما تدجل به الوثنيات السياسية فى الشرق على قطعان العبيد المغفلة .

ونحن نعلم أن بيننا من لا يدين بالإسلام . وهؤلاء لا حرج عليهم ما دمنا وإياهم على هذه القاعدة المنصفة « لكم ما لنا وعليكم ما علينا » .

وماذا يضيرهم إذا سدنا فى بلادنا فسادوا معنا ؟

يعجبنى قول الأستاذ أمين بك نخلة — وهو مسيحى كريم العاطفة صائب الحكم — « وفى هوى محمد لا حرج فى التمسك بالقومية والكلف باللغة كما أنه لا حرج فى التمسك بالدين . . .

فى هواه تتلاقى ملتا العرب : ملة القرآن وملة الإنجيل . حتى كأنما الإسلام إسلامان واحد بالديانة وواحد بالقومية واللغة . أو كأنما العرب — على اختلاف أديانهم — مسلمون جميعاً . حين يكون الإسلام هكذا هوى بمحمد وتمسكا بقوميته وكلفاً بلغته . !

ومحمد . لا تستطيع طائفة فى العرب التباهى به — وحدها — فهو فضلاً عن كونه للخلق كلهم حيث يتشبهون بأكرم الناس . فى حفظ النفس وحفظ الجار وحفظ الله . . لبالأجدر أن يكون للعرب كلهم حيث نتشبه — فوق ذلك — بأبلغنا فى الفصحى وأنهضنا فى الجلى يوم حطت الكفة بعرب وشالت بأعجام . . .

وإن لغير المسلم فى أرض العرب ألا يدين بدين « ابن عبد الله » . وأن يخلب لبه مثلا كتاب « لابن مريم » كل حرف منه يقطر رفقاً وصليب قمدت به دنيا وقامت به دنيا .

أما أن يكون فينا عربى من لحمنا ومن دمنا . . ثم يغدو . لا يمتّ إلى محمد بعصبية ولا إلى لغة محمد وقومية محمد . . فهو ضيف ثقيل علينا غريب الوجه بين بيوتنا . . »

إننا نترك هذا الدرس يأخذ طريقه إلى قلوب يغلى فيها الحقد على محمد وتعاليمه وتملأ الدنيا ضجيجاً على النهضة الإسلامية التى ظهرت بواكيرها فى ربوعنا .

وأيًّا ما كان الأمر فلن نحيد عن شرعة العدالة التى تعلمناها من كتاب محمد ومن سنة محمد .

* * *

ومرة أخرى نسوق القول إلى الحكام والمرشحين للحكم : دعوا مواكب الإسلام تمر بألويتها إلى ما تريد . !

لا تحرصوا على كل شىء فتفقدوا كل شىء . . .

اقبلوا حكم الدين فى دنياكم . . . قبل أن تسلبكم الثورات الحاقدة .
كل رحمة فى الدين وكل متعة فى الدنيا . . .

محمد الغزالى

مقدمة الطبعة الأولى

المسلمون والتطورات العالمية

كان للقدر الذى يخط مصاير الأمور أثره الفريد فى إخراج هذا الكتاب للناس ، فعندما تناولت القلم لأكتب لم أكن أنوى إلا زيادة فصول قلائل على الطبعة الثانية من كتاب « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » فإذا بمنادح النظر تتسع وآفاق الفكر تمتد ، ورأيت من الوفاء بحق الفكرة التى أعمل لها أن أمشى مع الموضوع حتى يستجمع حقائقه و يستكمل عناصره ، ثم عمدت هنا إلى شىء من التفصيل والمقارنة على غير ما صنعت فى كتابى الأول ، إذ كان غرضى هناك أن أرسم « الخطط العامة » لإنقاذ الشعوب من سوء استغلال الدين فى نهب حقوقها ، ثم وجدت أن ذلك لا يغنى عن ذكر « الطرق الواضحة » لهذا الإنقاذ الذى أصبحت الأمة الإسلامية فى حاجة ماسة إليه ، فمضيت قدماً فى إتمام هذه الرسالة ، وقصارى ما أرجوه أن تكون طليعة موفقة لغزو المظالم المتوطنة فى بلادنا ، ولعل أقلام الأحرار من الكتاب تساهم بنصيبها فى هذا الكفاح النبيل ، حتى تشتد على الطغاة وطأته ، وتخلع قلوب المتكبرين رهبته .

الحق المر . . !

لعلك تدرى أن النعامة تدفن رأسها فى الرمال حاسبة أنها وقد حجبت عينيها عن الصياد فقد اختفت عنه ، وأنها ما دامت لا تراه فإنه لا يراها ؟ إن بعض الناس يقفون من حقائق الحياة الثابتة هذا الموقف الأحمق فيحسبون

أنهم ما داموا يجهلون الحقائق فستجهلهم هى الأخرى ولن تفرض عليهم قوانينها ولن تنزلهم على حكمها ! وهذا ضلال بعيد. فإن السائر فى طريق يجهل أن بها هاوية محفورة سيظل يمشى حتى تصل قدمه إلى حافة الهاوية فينزلق لا محالة . ولو أجمع الناس على خطإ ينافى الواقع فإن الواقع لن يتغير قيد أنملة جبراً لخاطر الغافلين عنه . بل سيظل الواقع على حاله حتى يصل الناس إلى معرفته . ولقد كان العالم يوماً يجهل أن هناك قارات — لمّا تكتشف — فهل اختفت هذه القارات المجهولة أم بقيت فى مكانها العتيد حتى رست على شطآنها سفائن الملاحين المكتشفين ؟ إن الحق لا يغلب على أمره قط ولكنه يغلب الناس على أوهامهم حتما ! ولو نزل الحق على أوهام الناس لحظة لاختلت نظم العالم ولانقلبت قوانينه الدقيقة إلى فوضى شاملة : « أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ؟ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ . وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ . وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ . . » .

والقرآن الكريم يذكر عن نفسه أنه جاء للفت أنظار الناس إلى الحق وربط قلوبهم به . وأن آية من آياته لم تزغ فى معناها ولا فى غرضها عن هذا الحق المبين : « وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيراً » .

تجاهل الحق

وقد ألف الناس تنشئة أولادهم على الحقائق التى يعرفونها قلّت أو كثرت فالأستاذ يشرح لتلامذته الصواب والخطأ ويمسّكهم بالأول ويجنبهم الثانى فمن لم يجد من الناشئين من يعرفه ذلك شب جاهلا بجملة من الحقائق . والصغير يعلمه أبواه شيئاً من دروس الدنيا فإذا لم يتعلم شب عن الطوق ليواجه

الدنيا بعقل صفر من حقائق كثيرة . والعامة تقول : من لم يربه أبواه ربته الأيام والليالى ، فإن حقائق الحيـاة لا تلين للميوعة والدلال . بل ستظل تصفع المعوج إلى أن يستقيم عوجه وينتظم سلوكه مع قوانين الدنيا الصارمة . ومايقال عن الأفراد يقال عن الأمم . فالأمة التى تعرف الحق وتمشى على سننه وتقف عند حدوده . أمة تنجو من العثار وتوقى المزالق الخطرة . والأمة التى تشب كالطفل المدلل لا تجد من يعرفها الخطأ والصواب والخير والشر لابد أن تؤدبها الأيام والليالى ولابد أن تلقى من اللطمات والمخازى ما يعلمها الحق الذى جهلته . ويلزمها السبيل التى شردت عنها ! ! والتجارب القاسية التى يلقاها المرء فى عمره القصير ليعرف بعدها الحق ويفتح عليه عينيه هى هى الهزائم المريرة التى تلقاها الأمم فى عصورها المتطاولة فتصحح على ضوئها أغلاطها وتثوب إلى رشدها ورب‍ما كان هذا سر حلف القرآن بالعصور . على أنه لا فلاح للإنسانية إلا إذا استمسكت بأسباب الحق وتعلقت بأهدابه من إيمان وإصلاح ومصابرة : « وَالْعَصْرِ ! ! إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

ومهما زعمت أمة لنفسها من كرامة ؛ ونسبت لنفسها من مكانة ؛ فلن تصيب من رعاية الله حظاً . ولن تدرك من تأييده سهماً ؛ إلا إذا أقامت نظامها على الحق ؛ وحكمت بين بنيها بالحق ؛ وقسمت بينهم المغـانم والمغارم بالحق ؛ فإذا لم تفعل ذلك رفع الله يده عنها ؛ وأباح لذئاب الأرض أن تنهش جثتها وأن تسقط هيبتها ؛ وفى ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى غير متعتع » .

عقاب . . !

وأينما رجعت بصرك فى أحوال هذه الأمة ومناحى حياتها الحاضرة وآماد تاريخها القريب ، فإنك لا ترى إلا تجاوزاً عن الحق وغضاً من قيمته وإهمالاً لشأنه . وكم من حقوق ألف الناس ضياعها . ومعالم توارثوا طمسها ، وأباطيل أطبقوا على احترامها ، ومساخر تهيبوا مسها . بل تعلموا إجلالها ، فهل كان ينتظر لأمة — ذاك سير الأمور فيها — أن يحابيها القدر أو تستثنى من قوانينه الغالبة ؟ كلا : « ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته ، فإن الله شديد العقاب » . إن المسلمين تنكبوا عن الحق الذى هداهم الله إليه فلا جرم أن يسلبوا الحصانة التى استمتعوا بها دهراً طويلا . وعليهم أن يستفيدوا من الدرس الذى تلقنوه . فإذا وجدت راية العدالة والإنصاف جواً تخفق فيه ، وإذا داعبت أطرافها نسائم الحرية الطلقة المتاحة لكل فرد وإذا مشت فى ظلالها الجماهير الغفيرة والطبقات الكادحة لا تشكو ضيقاً ولا عنتاً ولا افتياتاً . فإن هذه الراية تسود مشارق الأرض ومغاربها وترمقها الأبصار فى أى مكان بنظرات الرعاية والحب . أما الآن فإن العالم كله يدرك من أحوال الشرق الإسلامى ما لا يسر قط ، ويعرف أن هذا الجانب من الأرض — الذى يسكنه حملة القرآن وأتباع محمد — إنما هو جانب مريض فى دنيا أفعمت بالعافية ، جانب غبى فى حياة أفعمت بالعلم ، جانب بثت فى نواحيه السدود والقيود وقلت فى آفاقه الحريات والمثل العليا على حين اهتزت الأرض من حوله بحركات الأحرار ونتائج عقولهم الخصبة وآثار أيديهم العاملة وإقدام نفوسهم الكبيرة . وصحيح أن للحق فى بلادنا آيات تتلى وكلمات تتردد وهتافات تشق أجواز الفضاء . ونحن نقول نعم . وعلام يدل هذا ؟ هل الحانث

الذى يذكر اسم الله ليحلف به زوراً ، يعتبر لله ذاكراً و به عارفاً ؟ لكأنما تليت آيات الله ليكفر بها و يُستهزأ بها . لقد كانت وظيفة الدين الأولى أن يمهد الطريق أمام الأمم المتعبة المستذلة لتنال الحرية والأمان والكرامة : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ » أما فى الشرق الإسلامى الآن فالدين ذريعة للصمت عما يجب الصراخ فى وجهه . ووسيلة للركون إلى ما لا ينبغى الركون إليه ، ودعامة لأنظمة هى منذ قرون علة التأخر والانحلال .

والدين أبعد ما نتصور عن هذا الاحتيال والاستغلال . وسنرى أن صلته بهذه المهازل هى صلة العدو اللدود بالعدو اللدود .

ما هو الدين . ؟

كلمة الدين — فى حقيقته المجردة — تساوى كلمة « الإنسانية » فى نسقها الأعلى ، وقد سلح الله الإنسانية بجناحين تحلق بهما أو تهبط بهما : « الفطرة والعقل » فإذا استكملت طبيعة الإنسان سلامة الفطرة وحصافة العقل ؛ فقد استكملت من الدين جوهره ، واستوعبت أصوله . والرجل الذى تتم فيه معالم الإنسانية تتم فيه معانى الدين والنظام الاجتماعى أو السياسى المعتمد فى وسائله وأهدافه على احترام الإنسان وصيانة قلبه ولبه ، هو نظام دينى و إن فقد هذا العنوان . وعلى العكس من ذلك كل نظام تطمس فيه الفطرة ، ويهمل فيه العقل ، وتداس فيه الحقوق . . مهما زعم هذا النظام لنفسه من تدين وتلا من تعاويذ وعلق من تمائم . . وما الصراع القديم الجديد بين « التدين » و بين تطورات الفكر الإنسانى إلا صراع بين الفطرة الإنسانية التى تشق طريقها إلى الكمال شقاً وتفرض نفسها على الحياة فرضاً و بين « أديان » خرجت على

نفسها يوم خرجت عن حقيقتها الإلهية ، وانسلخت عن جوهرها يوم انسلخت عن معانيها الإنسانية . ولذلك جاء الإسلام يصف نفسه بأنه « الفطرة » التى ذرأ الله الناس عليها . واستقبلتهم الحياة ؛ يوم ولدوا ؛ بها ويعيشون ؛ لو تركوا لأنفسهم ؛ فى هديها . . ويضرب الرسول لذلك المثل القريب من عقول الأعراب فى بيئتهم الساذجة الأولى فيقول : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة . . كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء » ؟ يعنى أن التغييرات الطارئة على هذه الطبيعة التى ولدت كاملة هى من صنع الناس لا من خلق الله . وقد أضفى الله من لدنه الكمال على هذه الفطرة فهى دين الحق لمن شاء الحق وقد انطلقت هذه الفطرة تتلمس طريقها فى الحياة ، وتحارب العوائق التى وضعت أمامها ، ووجدت من رجال الإسلام الأولين أعظم الأعوان لمد أشعتها، فانتصرت بهم وانتصروا بها ،وحطموا كهانات التدين المكذوب التى اعترضت زحفها . ثم بدأ المسلمون — لا الإسلام — يتخلون عن هذا المعنى الإنسانى . فوقفوا حيث انتهوا ؛ بل تراجعوا تراجعا عاماً فى كل ميدان . وأخذ غيرهم هذه الفطرة الإنسانية العاقلة و بدأ يسير على منهجها المستقيم ؛ فتحرر العقل من قيوده وانطلق يعمل ونحن نشاهد ! وأخذ الإنسان حقوقه، كما أخذت الطبقات المختلفة تنتصف وترتقى ،ونحن نشاور أنفسنا ما العمل وكيف السير ؟ والإجابة على الشفاه قريبة . إن منابع التقدم العالمى بدأت من الإنسان الحر فى فطرته وفكرته . فحرروا الطبائع والأفكار تفقهوا معنى الدين وتذوقوا معنى الدنيا .

بين تفكير الإنسان وهدى الأديان :

وللمقارنة بين الأمرين أساس مكين كما رأيت ؛ فرد الدين إلى الفطرة

السليمة ، وعلى ضوء الفطرة السليمة يستهدى العقل فى سيره . وقد تنحرف نصوص الدين عن موضعها لأسباب لا محل لذكرها ، وقد يضطرب العقل فى تفكيره وتجمح الفطرة فى مذاهبها ؛ ومن هنا يثور النزاع بين تفكير الإنسان وهدى الأديان ؛ بيد أن ثمة قاعدة يجب أن تكون نصب أعيننا أن كل أمر قطع العقل الإنسانى بصحته وأيقن بصوابه فلن يوجد فى الدين مايقف ضده ؛ و إذا وجد شىء ما يعارض هذه المقررات العقلية الثابتة فلنجزم بأنه ليس من دين الله ؛ و إنما هو من أهواء الناس وخرافات الأجيال ألصقوها بالدين إلصاقاً ؛ و يصدق الأمر كذلك بالنسبة إلى حقائق الدين ؛ فإن ما ثبت منها عن تمحيص ودقة و بصر ؛ يستحيل أن يصطدم به العقل أو تنفر منه الفطرة ، ولا عبرة بمرضى القلوب والعقول فيما يرسلونه من آراء وظنون . .

لقد كان صوت الوحى يرشد البشرية فى أطوارها الأولى ؛ و يلقى عليها من النصائح والآداب والتوجيهات ما يجنبها الخطل ويقيها الزلل ثم . . انقطع الوحى بعد أن قالت السماء كلمتها الأخيرة إلى الأرض ، وضمنتها صحائف القرآن المطهرة . وأهمل أبناء القرآن ما لديهم ، وأحالوا آى كتابهم مصادر كسب خسيس بجوار المقابر وفى ساحات المعابد . واضطرت الإنسانية أن تواجه مستقبلها بتجاربها الخاصة . وأن تستفيد من هذه التجارب فى زيادة معارفها وثقافتها ، ووقفنا نحن نسجل ملاحظاتنا على ما يحدث كالرجل الذى أدبه أبوه وهو طفل ثم مات عنه وهو طفل أيضاً ، فكلما سمع بعظة حكيمة قال : لقد أوصانى بها أبى قبلا — رحمه الله — وكلما ترامت إليه خطة مستقيمة هز رأسه أسفاً وهو يقول : لقد شرح لى أبى أصول هذه الخطة وأكد علىّ ضرورة التمسك بها ! وهكذا صنعنا نحن المسلمين ، لا تكاد الإنسانية الصاعدة فى مراقى التقدم تضع لنفسها نظاماً دقيقاً حتى نسارع إلى النصوص الخاصة

والقواعد العامة من تراثنا الجليل مؤكدين أن دعائم هذا النظام لدينا من زمان طويل . بلى أيها الناس إن آيات الفطرة نطقت بالحق منذ قرون ، لـكن الفطرة عملت عملها الحاسم عند غيرنا . لقد حكم على الآيات هنا بوقف التنفيذ ووضعت أمامها العقبات النفسية والاجتماعية والسياسية الشديدة غير أن الله كان أبر بعباده مما يظن الغافلون ، واستطاع وهج الطبيعة الإنسانية الحار ، أن يحرق ما يعلوه ثم يذروه رماداً ، وكان الإنتاج الإنسانى كثيراً ورائعاً من الناحية المادية والأدبية . ولا نزعم أنه خلا من الأخطاء ، فهذا لا يمكن ، على أنه فى جملته جيد مقبول ويكفيه من النجاح أنه أكره رجال الأديان على إعادة النظر فى موقفهم المريب من المواهب الإنسانية الخالدة وأكره المسلمين خاصة أن يدركوا مدى تفريطهم فى حقائق دينهم ومدى تمشيهم مع الرجعية السياسية والاجتماعية التى حولت بلادهم — قرى ومدائن — إلى إقطاعات لا خير فيها لدنيا أو دين .

عداء . . متى ينقضى ؟

توترت العلائق بين الإنتاج الإنسانى العقلى وبين الأديان عموماً . ولهذا التوتر أسباب لا يحسن التغاضى عنها وعلى الباحث المسلم — إحقاقاً للحق — أن يتعرض لها .

إن العلم المادى المتصل بشئون الحياة وقوى الـكون علم ممتاز جداً أدى للعالم فى عصرنا الحاضر خدمات جليلة فضلا عما كشفت عنه بحوثه العميقة من عظمة الطبيعة وروعة أسرارها . غير أن هذا العلم لا يهتم بالدين ولا يتحمس لربط الناس بربهم وسوقهم إلى خالقهم .

والاقتصاد العالمى الآن اقتصاد باهر فى وسائل استغلاله لخيرات الأرض

وفى محاولته تعميمها على الناس وفى نظره للشئون الاجتماعية نظرة استقراء وتدقيق . ولـكنه كالعلم لا يلتفت لتعاليم الدين ولا يكترث كثيراً أو قليلا لما جاء بها . . . فما السر فى ذلك ؟

السر فى ذلك واضح ، فقد مر العلم والاقتصاد بأطوار شتى ، وعندما كانت الأمة الإسلامية سيدة الأرض كانت الثقافة الإنسانية تلقى فى كنفها ترحيباً وإكراماً . فلما انتقلت هذه الثقافة إلى أوربا فى عصورها الوسطى لقيت عنتاً أليماً ، ولقى أهلها اضطهاداً وقسوة وواجه العلم عصراً من الصراع الملىء بالمآسى قام فيه رجال الدين بدور من الإرهاب المنظم لم يلبث أن انتهى بالفشل . . إلا أن هذا الترويع الذى وقع على العلم وذويه ترك أثره . فألحد العلم . وكره العلماء الدين . وساء ظنهم بالعقائد كلها على الإطلاق .

وكذلك كان رجال الدين فريقاً يتمم القسم الثانى من الارستقراطية التى أذلت الشعوب واحتضنت الرأسمالية الطاغية ولم يبال هؤلاء الرجال أن يتركوا الطبقات الدنيا تموت بؤساً وضياعاً . فلما تطور الاقتصاد العالمى واتجهت الحياة العامة نحو الاشتراكية ، كفر الاشتراكيون بالدين و بنوا مذهبهم على هدمه و بيتوا العداء الشديد للأديان كلها . وهذا المسلك ينطوى لا ريب على غلو ظالم فإن مسلك الإسلام — وهو دين إنسانى بحت — من العلم والسياسة والاقتصاد لا يبيح لواحد من هذه الثلاثة أن يكفر به ، ولا أن يجحد قدره وسنرى فى هذه الرسالة دلائل متضافرة على هذه الحقيقة الثابتة . وما دام الإسلام هو الخلاصة الصحيحة لرسالات السماء ، وما دام مدلوله الصادق القريب هو الفطرة الإنسانية النقية التى تشع العلم والاقتصاد والسياسة فى أسمى صورها ، فهل هناك من سبب معقول لبقاء أية عداوة بين الدين و بين نتائج الفـكر الإنسانى فى هذه الميادين ؟

آفة الشرق :

وأخطر مطعن يوجه إلى الإسلام ، وشر معرة تلحق بمبادئه نفسها بقاء الحالة الاجتماعية والسياسية فى بلاده . تثير الأقاويل منه ، وتعرضه على العالم فى أسوإ لباس ذلك أن جماهير المسلمين تضطرب فى مستوى دنىء من المعيشة المادية والتفكير العقلى ، ولا أحسب أن نظاماً ما من نظم الغرب يرضى أن ينحدر أبناؤه إلى الحضيض الذى وصلنا إليه ، فهل يعقل أن يرضى الإسلام بهذه الحال بله أن يسخّر لبقائها ؟

ولقد كتب صحافى أمريكى يصف لأبناء العالم الجديد حالة الشعب المصرى ومقدار التعاسة التى تنصب على رأسه من نظام الطبقات المتغلغل فيه فقال : « إن الطبقة الحاكمة فى مصر لا يزيد عدد أفرادها عن ٥ ٪ من مجموع السكان . وأفراد هذه الطبقة يملكون نحو ٩٥ ٪ من خيرات البلاد . أما الفلاح فيعيش هو وأسرته وجاموسته وحماره فى بيت واحد من اللَّبِن وقد يترك الباشا من باشوات مصر طعاماً لم يمس على مائدته يكفى لإشباع فلاح مع أسرته الكبيرة عدة أسابيع » ثم يصف أفراد هذه الطبقة بالتضليل واستغلال سذاجة الشعب « وعدم مواجهة المشاكل الحقيقية فى مصر . وليس هناك من شك فى أن الحركات التى يقوم بها العمال فى الوقت الحاضر لتحسين أحوالهم ستوصف بأنها حركات شيوعية غير أن هذه الأوصاف ستتلاشى من تلقاء نفسها قريباً » .

وهذه الأحوال نحن أعرف الناس بها ، لأننا نعيش فيها ! والذى نريد أن نقوله : إن الإسلام لن يذكر بخير قط ، ولن يؤثر عنه خير أبداً إذا بقيت أمور المسلمين بهذه المثابة المحزنة ، و بقى المتكلمون باسم الدين سكوتاً بإزائها ، وأى حجة تقوم للدين إذا فشل فى تحديد موقفه عملياً من هذه المآسى الفاجعة ؟

(١)

التأمين الاجتماعى

قالوا فى الأمثال : الجاهل يعيش ليأكل والعاقل يأكل ليعيش ، وظاهر أن كلا الرجلين يأكل ، ولكن هذا يجعل الأكل غاية الحياة وذاك يجعله وسيلة إليها . والإنسانية الفاضلة إنما تصح وتسمو بذلك الصنف من البشر الذين يرتفعون بوجودهم عن مستوى الضرورات الملحة والشهوات الجامحة ، غير أن إيجاد هذا الصنف من الناس يحتاج إلى أمور لا بد منها .

فإن المأكل والملبس وما إليهما من ضرورات العيش ، إذا عز منالها طال التفكير فيها ، و إذا طال التفكير فيها واشتد السعى إليها عظمت قيمتها وغلت حقيقتها . ؟ فإذا كلفت طائفة من الناس بأن تقضى عمرها فى تحصيل هذه المطالب المادية ، وأن تقف تفكيرها واحتيالها على توفير هذه الضرورات الإنسانية ، فمعى هذا أننا كلفناهم بأن يعيشوا ليأكلوا . . أو ليأتوا بالأكل لأهلهم وأولادهم ولعل هذا هو الذى جعل الجمهور عندنا يطلق العيش على الخبز . ولا أدل على سقوط القيم الأدبية من هذا الإطلاق الشائع بين العامة وهم معذورون إذ يحيون فى بيئة ترغمهم على أن يعيشوا ليأكلوا ، ولا تمنحهم فرصة من الراحة والطمأنينة يستريحون فيها إلى ما قد يكون فى الحياة من خير وجمال وسلام و إيمان .

إن الملكات الإنسانيةالتى تقيد بإزاء تحصيل الأقوات ، والتى قد تحبس أو تستهلك فى سبيل ضمان المعيشة الكريمة . . هذه الملكات يمكن الانتفاع بها فى ميادين الحياة الأخرى ، و إنما انطلقت العقلية الأوروبية تقتحم الآفاق المجهولة ، ثم ترجع بالكشوف الباهرة فى ميادين العلم والفن والأدب ، لأنها تخطت عوائق الحرمان والضيق ومزقت لباس الجوع والخوف على حين ظلت العقلية الشرقية — فى القرون الأخيرة — تذوب فى البحث عما يمسك عليها

رمق الحياة ؟ . . وقد حكوا أن فقيهاً إسلامياً كبيراً فاجأته خادمته وهو ذاهب لإلقاء الدرس بأن الدار ليس بها دقيق فطارت من رأسه مسائل العلم التى أعدها ! ! فإذا وقع كثير من العلماء والأدباء صرعى لهذا القلق ، وإذا فقدت البيئة كلها هذا التأمين الاجتماعى الواجب لأبنائها جميعاً ، فأى فشل فى الإنتاج المادى والأدبى ينتظر لمثل هذه الحال ؟ إن حقائق الحياة الضنكة فى الشرق الإسلامى تحدد هذا الجواب .

ثم لماذا ننسى الأزمات النفسية التى تعتور الإيمان فى ظل الاضطراب الاجتماعى عندما يدفن الأذكياء دفناً ويختفى وهجهم فى ألفاف من المسكنة والبأساء ، بينما تغدق على بعض الناس الخيرات والبركات لأن المصادفات — وحدها — أطعمتهم من جوع وآمنتهم من خوف ، مع أن هذه الأزمات النفسية الناشئة عن الاضطراب الاجتماعى قد تخلع الإيمان من القلوب على نحو ما قال الشاعر :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً ؟

هذا الذى ترك الأوهام حائرة ؟ وصير العالم النحرير زنديقاً ؟

ولسنا نرضى عن هذا الاتجاه الشارد فى سخطه . فليس العيب من تصريف القدر للأرزاق ولكن العيب من تظالم الناس وسوء اقتسامهم لما قسم الله بينهم من معايش . ثم العيب كذلك على طوائف من المتدينين لا ترى مواطن العبادة إلا فى مواطن المسكنة والدمامة والقلق ، كأن الله لم يخلق الراحة والجمال والمتاع ، إلا ليحتكرها الإلحاد والملحدون ؟ . . ومن ثم فهم على الفقر وعلى عدم الشكوى منه حريصون ، وللغنى والتطلع إليه متهمون . جميل ألا يفقد الإنسان توازنه النفسى إن فقد المجتمع توازنه الاقتصادى . وجميل إذا أحرجتنا مطالب الحياة المادية ألا ننسى

صور الحياة العليا . وأن نكرس بعض أوقاتنا لها إن استبدت بأكثر أوقاتنا مساكل الدنيا الرخيصة . ولكن هل من المحتم أن يتعرض الإنسان لهذه المحن ، وأن يضطرب فى هذا البلاء ليخرج منه بعدئذ سليماً أو جريحاً ؟

فى أمثال العامة أن رجلا قال : اللهم أدخلنى بيت الظالم وأخرجنى منه على خير . . . فقال له العقلاء ولم هذا كله ؟ لا يدخلك فيه ولا يخرجك منه ! وخير الطرق للنجاة بإيمان الناس والبعد بهم عن الزيغ والسخط ألا نجعل البيئة الاجتماعية مثلا آخر لبيت الظالم الآنف ذكره ، بيئة مليئة بالتجويع والتشريد ، فمن يدرى ربما دخلوها فلم يخرجوا منها بخير قط ؟ ولئن خرج البعض من أمثال هذه البيئات بخير ما ، فهو خير طفيف الوزن قليل الغناء ، وإن أفضل ما نقدمه لديننا ودنيانا أن نعمل على سيادة التأمين الاجتماعى ، وعلى شموله لكافة ما يحتاج إليه الفرد من ماديات ومعنويات .

بالوصايا الخلقية أم بالقوانين الحاسمة ؟

والسبيل لذلك ميسرة لمن أراد السير عليها ، فإن تأمين المجتمع من الجنايات الخطيرة شرعت له القوانين ، وبنيت له المحاكم ، وكونت له فرق الشرطة . ولم تكتف حكومة فى شرق الأرض ولا فى غربها أن تحارب السرقة أو القتل بالنصح المجرد والوعظ البليغ ، بل قامت الحكومات بالخطوات العملية الواجبة لحراسة الأموال والدماء والحقوق ، واعتبرت ذلك وظيفتها الأولى .

فهل تأمين المجتمع ضد الفقر والعجز والهوان الأدبى والعقلى ، أمر يعتبر أقل خطراً من أن تلتفت له الحكومات وتجعله من جوهر أعمالها ومن أسس وظائفها الطبيعية ؟ ؟ ولماذا يفرق بين الحالين فتتكفل القوانين بواحدة ويترك للخطباء والوعظين أن يستدروا العطف وأن يتسولوا الإعانات لإطعام جوعان

أو لكسوة عريان أو لمساعدة عاجز ؟ أو ليس هـذا التفريق بين حالتين متشابهتين مثار تساؤل مريب ؟ بلى ! فما قام هذا التفريق السمج إلا فى غفلة الأديان عن أداء رسالتها و بسط رقابتها ، فقام المحتكرون والمستغلون يؤلفون طبقات تأخذ من الشعب ماله — غصباً حراماً — ثم ترد له بعضه — صدقة مذلة — فتصل هذه الصدقات إلى فريق قليل ، وعلى أوقات متباعدة ، وتبقى الكثرة العظمى من الأمة فى أكثر أيام السنة تهددها الويلات وتنتابها الكوارث .

إن الإسلام تارة يعتبر الأمة كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وتارة يجعل الأمة كالجسم الواحد فى شيوع الإحساس والشعور بالألم ، غير أن هذه الأقوال إن لم تترجم عملياً وإن لم تنقل من ميدان النصائح والأخلاق المستحبة إلى ميدان القوانين المهيمنة على شئون الدولة ومصاير الأفراد وعلائق الطبقات فإنها تبقى كما هى فى مواضعها من بطون الكتب أو فى أفواه رجال الدين ولا تتقدم الحياة شبراً إلى الأمام .

وقد جاء الإسلام بتعليمات مالية خطيرة الأثر — لو أردنا تطبيقها — وهى فى جملتها تهدف إلى إقرار التأمين الاجتماعى ، وبث الطمأنينة فى قلوب الناس ، وعلينا أن نبتدع الوسائل لتنفيذها ، وأن نقتبس وننتفع بالأنظمة السائدة الآن ، والتى تلتقى وإياه عند غاية واحدة ، ولنعمل على تطهير المجتمع من آثار التخلخل الاجتماعى بسن القوانين وإحكام التشريعات مثلما نصنع تماماً فى مكافحة الجرائم الاجتماعية التى حرمها الدين ، وإلا كنا ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض .

مجتمع مثالى

والخطوط التوضيحية التى رسمها الإسلام للمجتمع الذى ينشده تشير كلها إلى أنه لابد من اجتثاث عوامل المسكنة والانقطاع والإعوز ، وإمداد كل فرد بما يحفظ كيانه ويصون حياته ، واشتراك أبناء الأمة قاطبة فى الاستمتاع بخيراتها ، يقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « من كان له فضلُ ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضلُ زاد فليعد به على من لا زاد له » . . . قال راوى الحديث فذكر أصنافاً من المال حتى رأينا أن لا حق لأحد منا فى فضل . فلما بنى أول مجتمع إسلامى فى المدينة ، سنحت الفرصة العملية لتحقيق هذه القاعدة ، فكانت الأخوة المتكافلة فى السراء والضراء ؛ المتقاسمة للخير والشر ؛ المتساوية فى نيل الفرص أو الحرمان منها ؛ هى الدعامة المكينة التى قامت عليها هذه الأمة فى أنقى عصورها . . ولقد أراد النبى الغزو مرة فقال : « يا معشر المهاجرين والأنصار إن من إخوانكم من ليس له مال ولا عشيرة ، فليضم أحدكم إليه الرجلين والثلاثة » قال جابر بن عبد الله — راوى الحديث — فضممت إلىّ اثنين أو ثلاثة وما لى إلا عقبة كعقبة أحدهم من جملى . . . وكان الرسول يقول : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع بخامس » ولم يكن هذا الترغيب فى استنقاذ الناس من براثن الجوع والفاقة نافلة هينة . بل كان الأمر متصلا بالإيمان وصلب الدين . ومن ثم قال الرسول : « ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم » كما روى أن رجلا جاء إلى النبى وقال له : أكسنى يا رسول الله فأعرض عنه — لعدم استطاعته —

فعاد الرجل يقول : اكسنى يا رسول الله فقال له : أمالك جار له فضل ثو بين؟ قال : بلى غير واحد ! قال : فلا يجمع الله بينك و بينه فى الجنة » .

ولقد أتى على الأمة الإسلامية عصر كان كل فرد فيه مكلفاً ألا يمسك لديه من المال فوق حاجته ! ثم ينفق الباقى فى وجوه المصلحة العامة . وفى ذلك يقول القرآن : « وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلِ : الْعَفْوَ ! كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » ولقد عمل بهذه الآية فى نزولها . ثم تآمرت عليها وعلى أشباهها من آى القرآن ظروف جعلت النزول على حكمها لا يتجاوز سنين عدداً . . . ثم طغت أمواج التفكير الرأسمالى . ورجع الناس إلى حكم الأنانية الباغية ! وقطع الإسلام من عمر الزمن أربعة عشر قرناً كان أغلب الأمة الإسلامية فيها يفر من قطر إلى قطر ابتغاء النجاة . أو يفر من الحياة إلى الموت ابتغاء الراحة وكان يبحث — بخلع الضرس — عن ضرورات العيش فلا يجدها . ومع ذلك كله لم يفكر القوم فى العمل بهذه الآية وما شابهها من قرآن أو ما شرحها من أحاديث !

بيوت الشياطين

وذلك أن ضغط الطبقات المترفة كان شديد الوطأة فاستطاع هؤلاء الشياطين أن يكموا الأفواه ، وأن ينشروا الرهبة والرعب . وأن يقضوا أعمارهم فى أيام باسمة وليال حالمة . على حين يحصد الحرمان أجيالا غفيرة من المنكوبين والضحايا . فلا عجب إذا سمى الإسلام هؤلاء شياطين . واعتبر بيوتهم التى يسكنونها بيوت الشياطين ، ومراكبهم التى يمتطونها مراكب الشياطين ، فعن أبى هريرة قال النبى صلوات الله عليه وسلامه :

« تكون إبل الشياطين و بيوت الشياطين . فأما إبل الشياطين فقد رأيتها يخرج أحدكم بنجيبات معه قد أسمنها ، فلا يعلو بعيراً منها ، و يمر بأخيه قد انقطع فلا يحمله . وأما بيوت الشياطين فلا أراها إلا هذه الأقفاص التي تستر الناس بالديباج » . وهذه التسمية تشعر بما ينبغي إكنانه لأصحابها من عداوة وما يجب إظهاره لهم من تنكر : « إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً » .

ومن الواضح أن بيوت الشياطين هذه هي التي هدمها الثوار الفرنسيون ، عندما انطلقوا يبحثون عن حقوق الإنسان و يهدمون معاقل الظلم ، و يتخلصون من ضوائق الكبت والحرمان . وهي كذلك البيوت التي هدمها الروس الحمر لما أعنتهم تفاوت الطبقات ، وأمضهم الترف المضاعف في ناحية والبؤس المضاعف في ناحية أخرى ، وقد تكون هذه الثورات الدامية قد اقترنت بقليل أو كثير من الإغراق والشطط ولكن هذه طبيعة الحياة ، قلما يتمخض فيها الخير والشر وعندما يكون الفعل منكراً يكون رد الفعل أشد نكراً ، وقد عانت الدنيا ضلالا كثيفاً وآلاماً غليظة من معيشة المترفين والمستبدين ، فلا جرم إذا اضطربت بعض اضطراب تحت أقدام المهتاجين الذين انتصبوا لحربهم وانطلقوا لتأديبهم . وستستقر الأمور أخيراً فيأخذ الناس اللباب و يتركون ما عداه ، كما يطعم المرء الثمار الخالصة و يرمي بالبذور والقشور والنوى !

والخبيرون بالنفس الإنسانية يعلمون أن أفراد الشعب لو تساوَوْا في الحرمان والأزمات ما شعر أحد منهم بغضاضة ، بل لعل في هذا عزاء وسلوى للجميع ، وتلك حال الأمم عندما تشتبك في حرب فتتوزع المصائب والتضحيات على كافة طبقاتها ، وعندئذ لا يكون هناك موضع لتبرم فرد أو سخط طائفة ، أما إذا امتلأ بيت بالنعمة وغص الآخر بالنقمة ، أما إذا مرت بالشعوب فترات

طائشة تسوق السرور إلى بيت ، والكآبة إلى آخر ، لغير حكمة واضحة ، وامتياز معروف ، فهنا موضع الضغينة ومنبت الثورة وعلة الإضراب والفوضى .

وقد تضمن الإسلام طائفة من الوصايا التى يصح أن تعتبر بداية لما ما بعدها فى علاج هذه المشاعر المضطرمة ، ولا بأس من أن تستكمل اتجاهاتها النبيلة بمختلف التشريعات الملائمة . وفى مقدمة هذه الوصايا ما يقوله الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « أتدرى ما حق الجار ؟ إذا استعانك أعنته ، وإذا استقرضك أقرضته ، وإذا افتقر عدت عليه ، وإذا مرض عدته ، وإذا أصابه خير هنأته ، وإذا أصابته مصيبة عزيته ، وإذا مات اتبعت جنازته ، ولا تستطيل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه . ولا تؤذه بقتار ريح قدرك — إلا أن تغرف له منها — وإذا اشتريت فاكهة فأهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده » .

وتلك النصائح لا ريب لها أثرها العميق فى البيئة العربية الساذجة ، وأول نتائجها أنها لا تخلق بيوت الشياطين التى ذكرناها ، بل بالحرى تخلق بيوت الملائكة الأبرار ، فإذا احتال الشياطين لبناء هذه البيوت وحياطتها بأسوار من التقاليد والقوانين ، فلتبق ما شاءت وشاء لها الهوى ، فموقف الدين حيالها لا تغيره الجهالات والظنون .

هذا الفريق الطائش . . ! !

ليس كبيراً فى عمله ولا خلقه ، ليس كبيراً فى رجولته ولا مروءته . ولكنه مع هذا الصغار اللازب ومع هذا الإقفار من آيات الخير والفضل معدود من كبراء مصر ! لأن مصر كثيراً ما يكبر فيها هؤلاء — بسحر ساحر — وقد لا تبعد عن الصواب إذا قلت . لا يكبر فيها إلا هؤلاء . لو كان البشر

يكتسون بأماناتهم وكفايتهم ما عاش هؤلاء أبد الدهر إلا عرايا لا تخفى لهم سوءة ولا تستر لهم عورة كأنهم قطعان من الحمير أو الكلاب .

يعيش هؤلاء فى مصر بعض العام وفى أوروبا البعض الآخر . فأما فى مصر فوظيفتهم الأولى اعتصار جهود الكادحين فوق هذه التربة المغبرة وحصاد ما زرع غيرهم ! حتى إذا أفعموا جيوبهم ذهباً وفضة رحلوا إلى أوربا ليكونوا سفراء لنا فى ميادين اللهو واللعب . وعندما يستقر هؤلاء السفهاء فى أوربا أو غيرها يبدأ موسم الاستغلال والاستيلاء على الغنائم الباردة فتترا كم الخسائر على موائد الميسر . وتسيل الأموال المبذولة من منابع لا تغيض ولا تشح . وتحمر جوانب الليل بما يذبح من أعراض ويداس من حرمات . وتسجل الصور الفاضحة للحفلات الراقصة . سيقاناً تهتز فتهتز فوقها أرداف وبطون تتحرك فتتحرك فوقها نهود . وموسيقى تميل أصداؤها بشتى الأعضاء والأهواء .

وكم يبلغ هؤلاء ؟ فوق عشرين ألفاً ينفقون أكثر من عشرين مليونا من الجنيهات . غصبت من مصر سحتاً وأنفقت فى أوربا باطلا، وفى الوقت الذى نسعى فيه لإجلاء انجلترا عن مصر (!) ندع المجال فسيحاً لصحفها الكبرى كيما تنشر صورة امرأة لعوب على أنها الراقصة الأولى فى مصر الإسلامية !

وفى الوقت الذى نشكو فيه من عض الأزمات بجمهور الشعب نسمح للسفهاء من باشاواتنا وغيرهم ببعثرة الثروة القومية فى البلاد الأجنبية على نحو أثار اشمئزاز الأجانب أنفسهم .

ونتلفت حولنا فى هذا الصيف فنجد المصايف القريبة والبعيدة مصايد للإغراء والهزل والجهالة ، بينما نحن لا نزال رسمياً وواقعياً فى حرب مع اليهود المتربصين والمتحفزين .

ماذا نقول لهذا الصنف الرقيع من الناس ؟ نقول لهم : لا تعودوا إلى بلد أنتم غرباء عن عواطفه ومشاعره بل أنتم أعداء لقضيته ومستقبله .

إننا لا نملك إلا التعليق على مجونهم وترفهم بإهداء هذه الآية إلى كل آثم منهم « تمتّع بكُفرِكَ قليلا إنَّك من أصحابِ النَّار » .

وعسى أن يأتى يوم ينفذ فيه حكم الله فتطهر الأرض من هذه الأرجاس ويطهر الجو من هذه الأنفاس .

كيف ننظم هذه الأعمال . . . ؟

وردت فى الإسلام نصوص كثيرة مفصلة ومجملة تدعو إلى التعاون على البر والتقوى ، وتحض على القيام بأنواع من الخدمة الاجتماعية التى يحتاجها كثير من الناس فالشيوخ والعجزة والمتعبون ، يجب أن تبذل لهم المساعدات التى يتطلعون إليها ، وعلى الأقوياء أن يقوموا بهذا العبء فى كل زمان ومكان « ليس من نفس ابن آدم جارحة إلا عليها صدقة فى كل يوم طلعت فيه الشمس . قيل : يا رسول الله ، من أين لنا صدقة نتصدق بها ؟ فقال : إن أبواب الخير كثيرة . . تدل المستدل على حاجته ، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف ، فهذا كله صدقة منك على نفسك »

والأطفال المشردون الذين فقدوا آباءهم حقيقة أو حكما ، يجب أن نعنى بكفالتهم ، وأن نشرف على توجيههم وتربيتهم حتى يستغنوا بأنفسهم : « من ضم يتيمًا بين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه وجبت له الجنة البتة » كما يقول النبى صلوات الله عليه وسلامه « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه »

والنسوة اللاتى فقدن رجالهن ، يجب أن تضمن لهن حياة العفاف والكرامة. وألا يتركن لقسوة الزمن وتقلبات الليالى « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، وكالذى يقوم الليل ويصوم النهار » .

وإعطاء العمال والموظفين رواتب سمحة تسد الحاجة وتغرى بالإجادة أمر لا يسوغ نسيانه « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ؟ وكذلك منحهم الراحة اليومية والأسبوعية والسنوية التى تمنع عنهم السآمة وتجدد فى نفوسهم الرغبة وتحبب لهم الحياة فإن الإسلام نهى فى العبادات أن يصلى أحد فوق نشاطه ، فكيف بأعمال الدنيا ؟ ثم إن الترويح عن القلوب وإدخال السرور على الناس ورد المضايقات عن نفوسهم أمر ارتفع به الإسلام حتى عده أقرب إلى رضوان الله من الانقطاع إلا الصلاة والصيام ! وفى ذلك يقول الرسول : « لأن يمشى أحدكم مع أخيه فى قضاء حاجته أفضل من أن يعتكف فى مسجدى هذا شهرين » . أبعد ذلك ترغيب فى تمكين الناس من الاسترواح إلى الحياة والاستمتاع بطيباتها ؟ .

والإسلام — كدين — يعتمد على الضمير الإنسانى أولا فى غرس هذه المبادىء ويكل إلى الأفئدة الرقيقة والقلوب الشفيقة أن تصبغ المجتمع بهذا الحنان والرفق فى إقامة شتى العلائق بين بنيه . ومن ثم يوصف الناس بأنهم إخوة أو رفاق أو زملاء أو مواطنون أو أى وصف آخر يدل على معنى التكافل فى الحقوق والتكافؤ فى الدماء والتعاون فى الحياة ! فإذا لم يتكون فى الفرد هذا الضمير الاجتماعى الذى يشعره بواجباته نحو أمته وبحقوق سائر أفراد الأمة عليه ، فهو شخص ساقط ، لا إيمان له وإن زعم أنه مؤمن . فعن أبى موسى الأشعرى أنه سمع النبى صلوات الله عليه وسلامه يقول : « لن تؤمنوا حتى ترحموا ، قال يا رسول الله كلنا رحيم . قال : إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة عامة الناس » .

فهل معنى هـذا السناد العاطفى للتأمين الاجتماعى أن يفقد العضد القانونى ؟ كلا . فإن تدريس الأخلاق لم يغن عن وضع القانون الجنائى . وأعمال البر التى شرحنا طرفاً منها لابد من تنظيمها لتحيا وتبقى ولتؤتى ثمرتها المرجوة منها ! قد تنزل الفاجعة بأسرة من الأسر ، فإذا بمشروع خيرى يعلن عنه فى الصحف . وإذا بطلاب الخـير — وهم قليل — يتبرعون ، وإذا بطلاب الرّياء ومحبى الألقاب — وهم كثير — يتبرعون ، ثم ينتهى الأمر . فهل كل فواجع الناس يعلن عنها فى الصحف ؟ إن الـكثرة الساحقة من مآسى المجتمع لا يعلم بها إلا ذووها ! ثم هل التبرعات المتقطعة أو الدائمة هى الطريق الطبيعى لمواساة من يتخلفون عن القافلة البشرية ويقعون فى الطريق ؟ إنها إن ردت عن البطون الطوى فلن ترد عن الوجوه الخجل ! فالحاجة ماسة إذاً لتدارك هذا الخلل . وتدخل الدولة هنا لا محيص عنه ، وروح الدين بل نصوصه تملى به ، فإن النصوص الدينية إذا قصر الأفراد فى تنفيذها وعجزوا عن تحقيق حكمتها ، ووقفوا بها دون غايتها التى شرعت من أجلها وجب انتزاعها من أيديهم ووضعها فى وصاية الدولة لتحقق الغرض الذى إليه قصد الدين ، لأن السكوت عن تقصير الأفراد فى الفرائض الموكولة إليهم ، هدم للدين نفسه وتجاهل لوظيفته ! .

عمل الدولة

فى الإسـلام عبادات شخصية يؤديها الأفراد أداء مباشراً كالصلاة والصيام وما يقرب منهما ، وفيه كذلك عبادات اجتماعية يؤديها الأفراد بوساطة الدولة كالجهاد وإقامة الحدود وإيتـاء الزكاة وما شابه ذلك ،

والأصل فى هـذا الضرب من العبادات أنه لحفظ كيان الجماعة الإسلامية وتأمين سلامتها فى الداخل والخارج ، ولنتريث قليلا فى تفهم الطريقة التى تؤدى بها هذه العبادات .

أمر الإسلام بالجهاد فى سبيل الله ، فهل من المستطاع أن ينبعث كل فرد على حدته لقتال الأعداء ؟ وهل يقال إن الأمة قد نزلت عند حكم الله إذا أرسلت أبناءها فرادى قياماً بواجب الكفاح المنشود ؟ لا . . بل هناك تجنيد عام ، وقوى متساندة ، وقيادة منظمة ، ووسائل عرفتها الأمم بالبداهة ، فكونت الجيوش ورسمت الخطط وعلى الفرد أن يسلم نفسه فى سن معينة للدولة وهى تصنع به ما تشاء وتكلفه بما ترى . و بذلك يكون قد أدى ركن الجهاد ولو أدى هذا الواجب الاجتماعى بأسلوب فردى لفشلت الدولة فى الدفاع عن نفسها ، بل لفشل الفرد فى العودة بنفسه سالماً ! !

كذلك تكاليف الخدمة الاجتماعية التى تفرض على المرء أنواعاً من الزكاة والصدقات والضرائب ، يؤديها ليطهر البيئة التى يعيش فيها من مظاهر البأساء والضراء . إن هذه التكاليف لون آخر من ألوان الجهاد ، إنه جهاد مسالم نبيل لا يقوم على سفك الدماء و إزهاق الأرواح ، ولكنه يقوم على تجفيف الدموع المراقة ، وتخفيف الحسرات المكظومة ، وطمأنة القلوب القلقة ، بلى إنه جهاد ، وقد عد الرسول صاحبه مجاهداً كما سبق فى الحديث : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله » . ومن الضرورى لنجاح هذا الجهاد الداخلى أن نسلك به مسلك زميله الجهاد الخارجى ، فنعهد به إلى الدولة و بذلك تعتبر الدولة مسئولة مسئولية مطلقة عن إطعام كل جائع ومداواة كل مريض ومساعدة كل عاجز . ولها تبعاً لذلك جباية ما تريد من أموال مختلفة المصادر . كثرت أو قلت .

وليس هذا التفكير جديداً إلا على أبناء العصور الإسلامية المتأخرة ! أما العهد الزاهر للخلافة الراشدة الأولى ، فقد كان هذا التفكير مألوفاً فيه لدى الشعب والحكومة جميعاً . وقد رأينا كيف قاتل الخليفة الأول لجمع الزكاة ، فهل كان استيلاؤه عليها إلا ليتولى هو نفسه — كحاكم — وضعها فى مصارفها المعروفة ، وهل هذا إلا إقرار بمبدأ مسئولية الدولة عن التأمين الاجتماعى فى بلادها ، وقيامها عن الأفراد بهذا الواجب ؟ ثم جاء عمر فزاد فى مسئولية بيت المال زيادة جديدة إذ جعله يكفل العجزة من أهل الكتاب . حدث أن رأى ذمياً يسأل فقال له : ما أنصفناك ، أخذنا منك الجزية وأنت قادر ، ونتركك الآن ؟ وأجرى عليه راتباً يغنيه . .

وفى عصرنا الحاضر اتسعت دائرة التأمين الاجتماعى ، وتعقدت مشاكل الحياة ، وتعددت أقضية الناس ، وزادت مهام الدولة ، وتجاوزت وظيفة الحاكم حدودها الساذجة الأولى . فلا جرم أن يتطور الفكر الإنسانى ، وأن ننظر إلى الدين لا فى نطاق الحوادث الجزئية التى تكلم عنها وحكم فيها ، بل فى نطاق الروح العامة التى ترمى إلى إسعاد الإنسانية و إلزامها حدود الحق والعدل و إشرابها معنى الأخوة والفضل .

مشاعر قلقة فى مجتمعات مضطربة

عندما يفقد المجتمع الدعائم المتينة التى يرسو عليها ، والقواعد الأمينة التى يثبت فوقها تنفعل نفوس الناس بعواطف محترقة ، كلما لفحهم من شقاء الحياة مس الحوادث الكاسرة والآلام القاهرة ! وقد حفظ لنا الأدب العربى عصوراً كثيبة لمشاعر الضيق المكظومة نذكر بعضها هنا مثلا لما يعانيه جمهور الناس ، ولا يحسن أن يبين عنه بالتعبير الواضح والأسلوب البليغ .

هذا رجل لا يعيش لنفسه ، فقد فرغ من حظوظ نفسه بعد مارسا فى الحياة كالضرس يطحن الحلو والمر و يسيغ الخير والشر ، ولكنه يعيش لأولاده ويعتصر الجهود المضنية ليقدمها لهم ، وهم لا يدركون ، هو يحب ابنته و يتحرك قلبه نحوها أبداً بيد أنه يخشى عوادى الأيام أن تتخطفه ثم تواجه فتاته وحدها المستقبل المجهول ! فهو لذلك يتمنى أن تموت قبل أن يموت ! أو أن يحيا لها . .

وزادنى رغبة فى العيش معرفتى ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم !
أحاذر الفقر يوماً أن يلمّ بها فيهتك الستر عن لحم وضم !
تهوى حياتى ، وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحُرَم !

وهذا رجل آخر يريد أن يتنقل فى جنبات الأرض وأن تتقاذفه مناكبها العريضة فتمنعه قيود الأهل والولد من هذه الحركة النشيطة وتضطره أن يحد من مسلكه وأن يقف به فى حدود الدائرة التى تنتهى بأولاد ربطت بعنقه وحده كفالتهم ونيطت به رعايتهم :

لولا بنيات كزغب القطا رُدِدْن من بعض إلى بعض
لكان لى مضطرب واسع فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

سيقول بعض الناس : إن هذه المظاهر الجزعة من آثار عدم الثقة فى الله ! ونقول لهم بل هى مظاهر الفوضى الاجتماعية التى ليس فى بقائها إلا ما يغضب الله . . لقد رفض الإسلام أن يقعد الكسالى عن طلب الرزق اعتماداً على هذه الثقة المزعومة . وما دامت بركات السماء لا تنزل فى الأيدى المغلولة عن العمل ، فهى لا تنزل فى المجتمعات المحرومة من قوانين العدالة وأنظمة التأمين الدقيق لما يصيب الناس من كوارث وضائقات .

وهل ينافى الثقة بالله أن يموت الرجل وهو يدرى أن الأمة التى يعيش فيها سوف تغذو أولاده وتكسوهم وتصل بهم إلى أعلى مرحلة يطيقونها من التعليم والتربية لأن القوانين التى تحكم البلاد تكفل ذلك كله ؟

إن المشاعر التى ذكرنا أمثلة لها هنا ليست عواطف فزع هين ، بل هى نفثات صدور محرجة يجب أن نستمع شكاياتها بجد وإخلاص .

ولنعلم أن الرجل مع مواهبه كالقائد مع جيشه إذا اضطر إلى الحرب فى جبهات عديدة أخطأه التوفيق فى أكثرها أو فى جميعها . ومواهب الرجال عندنا توزع على غير ميدان من ميادين الحياة المادية المتشعبة فهى لا تعطى فرصة الاستجمام التى تعينها على هضم الحياة والابتكار فيها ، وإجادة العظيم المنتج من فنونها ، أولا نوفر لها ذلك باسم الله ومن تعاليم دينه ؟ ؟

القيم الإنسانية فى المجتمع المؤمن

إذا كفلت للناس الضرورات التى يحتاجونها ، ومنعت عنهم الزيادات التى يطغون بها سقط المال عن العرش الذى يتربع عليه من قديم . وأصبح أغلب تفاوت الناس راجعاً إلى قيمهم الإنسانية وحدها . !

وهذا كسب عظيم للدين وشوط واسع إلى أهدافه الفاضلة . فقد بلغ المال منزلة جعلت له فى القلوب مرتبة القداسة حتى قال القائل فيه :

« لولا التُّقَى لقلت جلَّت قدرته » ! !

ولئن كان التقى قد عقل الألسنة عن أن تقول ذلك فقد عجز عن منع المجتمعات من بناء تقاليدها الكثيرة على هذا الأساس المنهار ، ثم رسخت

هذه التقاليد حتى بنيت عليها طائفة من الأحكام الفقهية الخاصة بالزواج والمهور والنفقات ! !

وقال شاعر — يعتذر عن سياحته فى جمع المال :

فإن الفتى ذا الحزم رام بنفسه جواشن هذا الليل كى يتمولا !
ومن يفتقر فى قومه يحمد الغنى وإن كان فيهم واسط العم مُخْوِلا !
ويزرى بعقل المرء قلة ماله وإن كان أزكى من رجال وأحولا
كأن الفتى لم يعر يوماً إذا اكتسى ولم يك صعلوكا إذا ما تمولا !

ونحن نشاهد فى الطبقات الدنيا من الناس ، أنها برغم عريها العقلى من التعليم على جانب كبير من الذكاء الذى يدور محوره على كسب المال وجمعه من أعقد الطرق واستخلاصه من أشد المصادر ضناً به ، وذلك لأن السعى وراء المال يتصل فى حياتها بغريزة البقاء . وهى غريزة متأصلة فى الحيوان والإنسان معاً ، إلا أن نتائج هذا السعى الحثيث ، فى بيئة شحيحة بالخير ، كانت وبالا على الأخلاق والمجتمع إذ أصبح النفر من الرجال يقتل حول قروش معدودات . وأصبح العدد من الفلاحين يقتل لرى حقل ! أفلا نستطيع تلافى هذا الهوان الإنسانى . إذا أمنا على حياة المجتمع تأميناً يقطع دابر الحاجة والاحتيال ؟

(٢)

فلسفة الغنى والفقر

يميل البعض ليفهم من الدين أنه عدو الدنيا ، يزهِّد أصحابه فيها ، ويُقنِّعهم بالقليل منها ويُصبِّرهم على لأوائها ، ويُرضِّيهم ببأسائها وضرائها ويعدهم — فى الدار الآخرة بما حُرموا منه فى هذه الدار . وبذلك يخلق مجتمعاً يحيا على التافه ويكسل عن استنباط ما فى الأرض من خيرات ، ويتخلف حتما عن المجتمعات التى تعبد الحياة وتكرس قواها كلها لخدمتها وتجديدها . !

ولعل الشيوعية وهى تحارب الدين تضع هذه الشبهة نصب عينها . وما لنا نخص الشيوعية بهذا الاتهام ؟ إن الحضارة الأوربية التى تسود الغرب لا تسمو بالدين عن هذا الفهم . وهى والشيوعية صنوان فى الكفر والإلحاد !

* * *

ونحن إذ نفند هذه الشبهة — لا نزعم أن الدين يوصى الناس بالتكالب على الدنيا ، والتفانى فى خدمتها ، وإشباع نهمة النفس منها ، كما تفعل ذلك المذاهب المادية . ولا نزعم أن الزهد فى شهواتها والتخفف من لذائذها ووضعها — بالنسبة إلى الآخرة فى الكفة المرجوحة ، لا نزعم ذلك خطأ فى الفكر أو نقيصة فى الخلق . بل إننا نعترف أن اتجاهات الدين فى هذه الأنحاء واضحة . وصادقة .

وما دامت الآخرة حقاً ، فإن إسقاطها من حساب الإنسان ضلال ، وما دامت للحياة الدنيا مثل رفيعة ينبغى إيثارها وإن أدى الاستمساك بها إلى قليل أو كثير من التضحيات ، فإن إغفال الفضائل الروحية لا يسوغ إلا فى مجتمع من الحيوانات .

ونحب أن نلفت النظر إلى حقيقة مشتركة بين طبيعة الدين فى تعاليمه وطبيعة الإنسان فى أعماله .

إن الدين يُذكِّر حيث يُظن النسيان ، ويكرر حيث يُظنُّ الإهمال ، ويوقظ حيث تظن الغفلة ، فإذا لم يحتج الأمر إلى ذلك سكت أو أرسل القول على نحو لا إثارة فيه .

إنه يوصى الولد ببر أبويه ويؤكد هذه الوصية مراراً . وقلما يلتفت إلى الآباء يوصيهم بأولادهم ، فإن حنان الآباء المنبعث عن أعمق الغرائز والذى يتفجر عواطف غامرة تجعل المرء يتفانى لإسعاد ذراريه . ذلك كله ليس بحاجة إلى إرشاد السماء ليؤدى رسالته . أما مسلك الأولاد فالأمر فيه على العكس . ومن ثم تكاثرت الآيات والأحاديث لتوجهه إلى الحق .

وقد كان المفروض أن الناس يعملون للدنيا بوحى غرائزهم المجردة ، بل إن عملهم للدنيا يستولى على ألبابهم ويستغرق أوقاتهم ويشتط بهم إلى سبل معوجّة . فالمنتظر من الدين — والحالة هذه — أن ينذر بالآخرة وأن يسوق من صور الوعد والوعيد ما يغزو القلوب بالرغبة والرهبة وليس يفهم أبداً من الكلام عن الآخرة شلّ الأيدى التى تعمل للدنيا .

بيد أن المسلمين فى عصور انهيارهم العقلى والخلقى ، وهموا أن الاشتغال بالدنيا أمر منكر ، فاضطربت فى أيديهم مصالح الحياة . وتأدى بهم ذلك إلى شر لا بد منه فضاعت من أيديهم مطالب الدين نفسه . وظلت مضاعفات هذا الغباء تترادف حتى سقطت دولة الإسلام ، وأصبحت أرضه كلأً مباحاً للاستعمار الغربى واللصوصية الدولية . وازدحمت أسواق التجارة ومعاقل الصناعة بسماسرة اليهود ودهاة الأجانب . وخلت هذه الدوائر المتحكمة فى مصاير الشعوب فى كل أثر للنشاط الإسلامى النظيف .

* * *

والغريب أن العمل للدنيا — وإن كان نزوعاً مفروغاً منه لكل حىّ —

إلا أن الإسلام تكلم فيه بأسلوب صريح ، فى تحديده للأطراف التى تنشأ عنها الفضائل والرذائل ، وتشخيصه للأهواء التى تصرف عن الحق وتدفع إلى الباطل . و باستقراء الآيات والأحاديث الواردة يوقن أدنى مطلع أن الدنيا ما ذُمّت بتّةً إلا حيث يكون معناها الغرور أو العصيان أو الشهوة الجامحة . وأنه ما هُوِّن شأنها إلا حيث يكون القصد التنويه بالآخرة وخلودها الطويل إلى جانب انصرام الحياة وانقضائها .

وفى الحديث : « إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقى فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول : لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته . وأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً ، فهو يخبط فى ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته . فوزرهما سواء » .

إن الدار الآخرة لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الدنيا الصالحة فكيف تنفصل عن الدين أو تحسب غريبة عليه ؟

ولا بأس أن نستعرض من نصوص الكتاب والسنة ما يوهم ظاهره أنه ترغيب عن الدنيا أو تحبيب فى حياة الفاقة وقلة ذات اليد ! !

هل يكون الفقر شرفا . . ؟

إن الفقر — فى نظر الإسلام — معرّة وسُبّة ، يوم يكون نتيجة الخمول والقعود وعقبى التفريط والاستحماق . وليس هذا النوع من الفقر هو المقصود مطلقاً من الآيات والآثار التى تذكر الفقراء بخير . .

وعندما ندرس سيرة الرسول وصحابته تتأكد لدينا هذه الحقيقة ونعرف ما يعنيه الإسلام عندما يُمجِّد ألواناً من الحياة القاسية والمعيشة الغليظة ! !

هناك فقر التضحية ، وما فقر التضحية ؟ .

الرجل يكون عامر الخزائن واسع الجاه فيعتنق مبدأ كريماً يبذل من أجله النفس والنفيس ، ويبيع راحة البال والوداعة مع الآل فى سبيل فكرته التى آمن بها ؛ ويلحقه من جراء ذلك بؤس أصحاب الدعوات المكافحة .

« للفقراء المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ ، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً ، وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ . أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُون » .

هذا فقر جره النضال ، وعرفته الأمم كافة فى عظماء الرجال من بنيها ، سواء منهم الشهداء المجهولون أو القادة المعروفون . عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله أنه قال : هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله عز وجل ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : الفقراء المهاجرون ، الذين تُسَدُّ بهم الثغور ، وتتّقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء . فيقول الله لمن شاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم . فتقول الملائكة : ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال : إنهم كانوا عباداً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، وتسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء . قال فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »

أجل لقد صبروا على الفقر ، ولكن أى فقر ؟ إنه ليس فقراً لصعاليك من المتبطلين وذوى الهمم الساقطة لقد زهدوا فى الدنيا لا عن عجز فيها ، بل

عن تطلع لما فوقها . فلما جاءتهم الدنيا توسلوا بها لما يريدون ففرغت أيديهم منها .

هناك فقر يلحق الرجال عندما يقفون فى صفوف المعارضة للسلطات القائمة ولقد قرأنا لأساطين العلماء كيف احتقروا الملوك وابتذلوا مهابتهم ، ودفعوا ثمن ذلك من معايشهم الضيقة ، ومن المناصب والرياسات التى رفضوها وحسبهم أنهم ساندوا الحق ، ولو داسه المتملقون الفجرة ممن يترضّون الحكام ابتغاء عرض الدنيا . يحكى أن الحجاج بنى داراً فخمة . واستدعى الزوار يباهيهم بها . فجاءها الحسن البصرى فلما دخلها قال : الحمد لله ، إن الملوك ليرون لأنفسهم عزاً ، وإنا لنرى فيهم كل يوم عبراً ، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده وإلى فرش فيُنَجِّده ، وإلى ملابس ومراكب فيحسنها . ثم يحف به ذباب طمع وفراش نار وأصحاب سوء . . فيقول : انظروا ماذا صنعت ؟ فقد رأينا أيها المغرور ! فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟

أما أهل السموات فقد لعنوك ، وأما أهل الأرض فقد مقتوك ؛ بنيت دار الفناء وخربت دار البقاء . وغررت فى دار الغرور لتذلّ فى دار الحبور .

ثم خرج وهو يقول إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء لَيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه .

هؤلاء علماء فقدوا الدنيا . أين من هؤلاء مَن استماتوا فى طلب الدنيا بالزلفى إلى أمثال الحجاج من حكام الشرق المنهوب المنكوب ؟

إن علماء السوء — فى عصرنا هذا — شياطين خرس ! وعلى صمتهم وملقهم يعتمد الحكم الفردى فى غشمه واستبداده إنه يقر بهم ويسبغ عليهم المال والجاه على قلة بضاعتهم فى العلم وقلة نصيبهم من الشرف ، بينما يطوح بغيرهم فى أقصى الدنيا لأنهم يقفون ضده بالمرصاد .

وفى بعض الدول الإسلامية تذوب الميزانية العامة فى شهوات أسرة من غير ما نـكير . . ونسأل أين حملة العلم الإسلامى يمسكون بخناق اللصوص ؟ فتجدهم يتنافسون على الفضلات التى ترميها العصابة النهمة ، لتشغل الأفواه بالمضغ ، عن النقد والملام .

روى سفيان الثورى قال : لما حج المهدى أبى إلا أن يطلبنى ، فوضعوا لى الرصد حول البيت فأخذونى بالليل ، فلما مثلت بين يديه أدنانى ثم قال : لأى شىء لا تأتينا فنستشيرك فى أمرنا فما أمرتنا من شىء صرنا إليه وما نهيتنا عن شىء انتهينا عنه . فقلت له : كم أنفقت فى سفرك هذا ؟ فقال : لا أدرى ، لى أمناء ووكلاء ، قلت فما عذرك غداً إذا وقفت بين يدى الله فسألك عن ذلك ؟ لـكن عمر بن الخطاب لما حج قال لغلامه : كم أنفقت فى سفرنا هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً ، قال : ويحك ! أجحفنا ببيت مال المسلمين ! ! .

إن سفيان كعالم مسلم رأى محاسبة الملك العباسى عن نفقاته فى رحلة حج أول ما يسأل عنه ، إبراء للذمة فى الحفاظ على مال الأمة . أما ممثلوا الإسلام اليوم فى كثير من أممه الضائعة ، فأقصى ما يخدمون به دين الله وعباد الله هو إصدار التصريحات المتـكررة ، بأن الإسلام يحمى الملـكية الشخصية . . وبلغت الجراءة بأحدهم أن يعد ذلك من الغايات العظمى التى بعث النبى لإبلاغها . . ! !

وذلك كله إرضاء للسَّرَقَةِ من الحـكام الذين كونوا لأشخاصهم أملاكا طائلة هى قطعاً مغتصبة من حقوق الجماهير .

إن الفقر الذى يحرص عليه الإنسان عندما يحارب هذه الأوضاع هو فقر أشرف من غنى يفد عن مهادنتها . وهو الفقر الذى مجده الإسلام

وقد قرأنا لأبى ذر قوله : إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر : خذنى معك وأبو ذر قائل هذه الكلمة فى محاربة الفقر هو الذى يطلب الفقر عندما يتعين سبيلا لنظافة الخلق « عن أبى أسماء أنه دخل على أبى ذر وهو بالربذة وعنده امرأة سوداء مسفعة ليس عليها أثر المحاسن ولا الخلوق . فقال : ألا تنظرون إلى ما تأمرنى به هذه السويداء ؟ تأمرنى أن آتى العراق ، فإذا أتيت العراق مالوا علىّ بدنياهم ! وإن خليلى صلى الله عليه وسلم عهد إلىّ أن دون جسر جهنم طريقاً ذا دحض ومزلة ، وأنا أن نأتى عليه وفى أحمالنا اقتدار واضطمار أحرى أن ننجو من أن نأتى عليه ونحن مواقير » .

هذا الرجل الأبى آثر الشظف مع زوجته على أن يدخل فى دنيا الحكام برضاً أو معونة ، ولو كان فى ذلك الفقر ، فهو فى منطق الإيمان أدنى إلى النجاة عند الله .

الرضا بالمقسوم

إن الرغبة فى إحراز الدنيا وكسب المال لا تقف من الناحية النفسية عند حد ، كما أن الشريعة لم تقدر حظوظاً معينة من الأرزاق يهدأ المرء بعد نيلها ، فالمسلم يستطيع مدافع من طبيعته وباعث من شريعته أن يكتسب ما يشاء ، بيد أن للمال ضراوة عند المشتغل بجمعه قد تسيطر عليه فتجور على خلقه . والكدح فى الحياة ليس معركة مضمونة النتائج دائماً ؛ ومن اليسير أن نرى فى ميادين الكفاح وراء لقمة الخبز فما فوقها طوائف شتى من الناس تستبد بها عواطف الحزن والفرح واليأس والأمل .

وتدخُّل الدين فى هذه الحال ليخفف من مضاعفاتها ويلطف من غلوائها أمر مفهوم مقبول .

إن أى مجتمع فى الدنيا لا يخلو من نفر يرى نفسه مهضوم الحق منقوص الحظ ، ومهما اجتهدنا فى تصحيح الأوضاع و إشاعة العدل فإن الذين يُزْكُون كفاياتهم و يتهمون غيرهم لن ينعدموا . فهل يترك الذين هؤلاء فريسة السخط ؟ أيقول لهم : انتحروا ؟ أيقول لهم : احقدوا ؟ أم يوجههم إلى الاحتفاظ بحياتهم واستغلال الفرص المتاحة لهم ؟ .

فى هؤلاء يساق النصح المعروف : « يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » ثم يلفت النظر إلا أن المرء قد تتوفر له نعم هى فى ظاهرها تافهة ولكنها فى باطنها خير جزيل « من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

وليس هذا من الإسلام ترضية بالواقع عَلَى عِلَّاته . أو تقبلا المظالم من الباغين . فإن تعاليم الإسلام فى التشبث بالحقوق ومقاتلة الجائرين فوق الحصر .

عن سويد بن مقرن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قُتِلَ دون مظلمته فهو شهيد » ، وعن سعيد بن زيد سمعت رسول الله يقول : «من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

فما كانت القناعة رضا بالهوان أو خدشاً للعزة ، وتَقَبُّلُ الإنسان — من الله — ما قسم له لا يمنع محاسبة الناس على تصرفاتهم وردها بعنف إن جانبت الصواب . . والفهم الصحيح لهذه المسألة متصل بالفهم الصحيح لعقيدة القضاء والقدر .

وقد تكون القناعة أمراً واجباً ، إذا كانت سياجاً دون الحرام وحجراً على مطامع النفس وحبها لأخذ المال من أى طريق . سيما إذا رأى المرء أقرانه أغنياء وهو فقير ! ولا شك أن فقر القناعة هنا أشرف والرضا بالمقسوم أكرم ،

إن لم تكن هناك أبواب متاحة للغنى الحلال . . ولا ينتظر أحد من الإسلام أن يجيب دواعى الجشع والتطلع المريب ! .

قال عطاء بن أبى رباح سمعت أبا سعيد يقول : يا أيها الناس لا تحملنكم العسرة على طلب الرزق من غير حله ، فإنى سمعت رسول الله يقول : « اللهم توفنى فقيراً ولا توفنى غنياً واحشرنى فى زمرة المساكين . فإن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة » .

وهذا الكلام واضح فى أنه حرب معلنة على الثراء المجلوب من كسب الحرام وأكل السحت ، وإيثار للفقر عليه مهما كانت متاعبه .

المستضعفون

عندما كان الحكم الفردى المطلق يسود القرون الأولى لم يكن للشعوب وطبقاتها الكادحة شأن يذكر ، كانت مقومات الأمم ومقدراتها تلتقى عند سدة ملك متسلط ينسب له كل شىء ويصدر عنه كل شىء .

فإذا أعلن حرباً أكلت الأخضر واليابس ، وطاحت فيها ألوف الضحايا فرض على الأمة أن تحمل هذه المغارم لتتوج هامته بأكاليل النصر ، وتسجل اسمه — اسمه وحده — فى تاريخ الفاتحين . أما النسوة الثكلى والشباب الملكى فليس لهن ولا لهم حساب وكثيراً ما كانت تقوم حروب عاصفة من أجل مشا كل أسرة مالكة وصلاتها بأسرة أخرى .

هذا فى عصور الحرب — وما أكثرها — أما عهود السلم فكانت الأمم تشقى فى حراثة الأرض وإدارة الآلات ليظفر بثمرات عملها اللاغب نفر من الفراعنة والقياصرة والأكاسرة .

كان عامة الناس وقوداً يحترق فى صمت لإشباع هذه المطامع . وكانت

جماهير المستضعفين تذوب ماديا وأدبيا فى أشخاص السادة الحاكين . .

* * *

فلما جاء الإسلام هدم هذه الخرافات ، و بدأ يرد إلى الأمم ثقتها بنفسها و بدأ يفهم كلّ من له شارة من جاه أنه لا فضل له فيها ، وأن حياته لا تخلص له إلا من جهاد أولئك المستضعفين .

عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص قال : رأى سعد أن له فضلا على من دونه . فقال رسول الله : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ..؟ » وقال كذلك : « إنما تنصر هذه الأمة بضعفائها — لا بكبرائها — بدعوتهم وصلاتهم و إخلاصهم » وقال أيضا : « ابغونى فى ضعفائكم . إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » .

هذا اتجاه شعبى حق يبرزه الإسلام لينصف به الطبقات المهملة — وهم الأمة كلها — ويكفكف به غلواء القادة والحكام وأنانيتهم التى آذت الله ورسوله وأهل الأرض أجمعين .

وقد كان هذا الكلام غريبا على من ألفوا استغلال السواد الأعظم من الناس فى بناء مجدهم الشخصى البحت . ولسان حالهم يقول :

والجماهير ثنايا المرتقى فى المعالى وجسور العابرين !

ولكنه الحق الذى أكده نبى الإسلام فى إرشاده المتكرر . إن هذا العامل الزراعى الملوث بالطين ، وهذا العامل الصناعى الملوث بالزيوت والدخان ليس شيئا تافها فى حياة العالم و إن لم يكتب اسمه فى تاريخ العالم المشحون بأسماء الملوك والحاكين .

عن أمية بن عبد الله قال : كان رسول الله يستفتح بصعاليك المسلمين

وعن معاذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم عن ملوك الجنة ؟ قلت : بلى ! قال : رجل ضعيف مستضعف ذو طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبرّه » .

وقد وقع المتصوفة على هذه الأحاديث كما يقع الذباب على العسل ، ففهموا منها — قبحهم الله — أنها دعوة إلى الهوان والضعة ! ! . وإلى نزع السلاح ونبذ الكفاح .

وفى ظلمات هذه العقول القاصرة ، تحولت آيات الجهاد العسكرى والنضال السياسى إلى ضروب من الرياضيات التى تهزل البدن والروح ، وتميت عناصر الغلب والطموح ، لا صلة لها أبداً بدين الله .

وإنه لما يحزّ فى ضمائر المؤمنين أن ينتشر هذا الجهل الفاضح ، وأن يظل يهوى بالأمة الإسلامية حتى ينتهى بها إلى هذا الدرك الذى وصلت إليه !

* * *

إن إهانة الطبقات العاملة واستذلالها لحساب نفر من المستبدين تأدى بالأمة إلى حال من الذلة جعلت وزير خارجية فرنسا فى إبان الحروب البلقانية يقول : « لو كان المسلمون أربعمائة مليون كلب . . لحسبنا حسابهم » وهذا الذى يقوله الوزير الفرنسى صورة صادقة لنظرة انجلترا وفرنسا وأمريكا وروسيا إلى جماهير المسلمين . إلى الأمة التى أهانها كبراؤها . . . فهانت بهم على الناس أجمعين

* * *

إن الطبقات المستضعفة حصلت على حقوقها فى الغرب منذ آماد طويلة ، والدساتير المرعية هناك آية تنطق بهذه الحقيقة . وقد كانت انجلترا — التى تحارب الحرية فى بلادنا — أسبق الدول الحديثة إلى تقييد سلطان الملوك ففى سنة ١٢١٥م ثارت على الملك « جون » الثانى ثم هاجت على الملك « شارل »

ونفذت فيه حكم الإعدام ، كما طردت الملك « جيمس » الثانى . وفى ثورة سنة ١٦٨٨م وطدت سلطانها الشعبى فمضى فى طريقه مستقيما إلى اليوم .

وحدثت فى أخريات القرن الثامن عشر بفرنسا ثورة جامحة انتهت بقطع عنق الملك لويس السادس عشر وسفك دماء عدد ضخم من النبلاء . ووضعت مبادىء صالحة لصيانة حقوق الإنسان ، لا تخرج فى معناها وأهدافها عن المبادىء المعروفة — نظرياً فقط — فى بلاد الإسلام ! .

وفى مصر دستور صالح لإسعاد الشعب ، لو أحكمت الخطط لتنفيذه ، ولم تلعب بنصوصه الأهواء . ولكن غير مصر من أقطار الإسلام الأخرى يعيش فى أجواء خانقة كئيبة ، يحلم فيها بالحرية والخبز وقلما يجد إليهما سبيلا .

فهل يحنو الزمن على أولئك الضعفاء ؟

وهل يُقصى — ولا نقول يقتصُّ — من سادتهم الكبراء ؟

الغنى الطيب

القرآن الكريم يسمى المال الكثير خيراً ، وبه فسر العلماء قوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ» وقوله « وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيد » كما أوصى القرآن بحسن تثمير المال ، وجعله فى الأيدى الخبيرة التى تستطيع الإفادة منه ، وتحصيل المنافع المبتغاة به « وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا ، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ » .

وفى الحث على كسبه يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « نعم المال الصالح للعبد الصالح » .

وفى حديث موسى لما أرسل إليه جردان من ذهب « فجعل يحثو منه فى حجره ، فقال الله له : ألم أكن أغنيتك عن هذا ؟ فقال له موسى : ولكن لا غنى لى عن بركتك ! » .

ومن أدعية الكتاب: «ربَّنا آتِنا فِي الدُّنيا حسَنَة وفى الآخِرة حسَنَة» ومن أدعية السنة: «اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى. وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى. وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى.

واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير. واجعل الموت راحة لى من كل شر».

وفيما يتيحه المال لأصحابه من فرص السبق فى الدنيا والآخرة ورد عن أبى هريرة أن فقراء المهاجرين أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم! قال وما ذاك! قالوا: يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق!!».

ويستطيع أولئك الفقراء أن يذكروا أن بركات الغنى الطيب أكثر من هذا، فهو فى الدنيا قوام الدولة المسلمة، وفى الآخرة منار يهدى ذويه إلى رضوان الله.

وقد سمع النبى شكاة القوم، ثم أوصى بأن يكثروا من التسبيح والتحميد ليدركوا بإدمان الذكر ما فاتهم من فضل النفقة! قال أبو صالح: «فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله! — فرجع لهم سبقهم بالغنى!! — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

والواقع أن الغنى النظيف؛ الناتج عن الكسب الشريف؛ المبذول فى خدمة المثل العليا والنواحى الفاضلة؛ هو لا ريب منتهى ما ينشده الدين لأتباعه فى هذه الحياة.

وأن الرجل المتمكن فى الدنيا البارع فى شئونها وقيادة أزمتها إذا سخّر

مواهبه ومكاسبه فى سبيل الله فهو لا ريب أرسخ قدماً فى الإيمان ، وأدنى مثوبة ومنزلة لدى الرحمان من أى فرد آخر .

وقد قال الله فى يوسف — لما أشرف على خزائن الأرض فى مصر وتولى أرفع المناصب بها — « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ . نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ »

الثراء وظيفة اجتماعية لا نعمة شخصية

من النعم ما لا يكاد يتجاوز صاحبه ، فهو أول الناس شعوراً به وانتفاعاً منه كالصحة والجمال مثلا . فإن صلة المجتمع بهذا النوع من المواهب الخاصة محدودة . والغنى ليس من هذا القبيل ، فإن الإسلام ربط بالثراء من الحقوق العامة مالا يحصى ، وجعل الغنىّ فى ثروته كالموظف الذى يسند إليه منصب ما . فإن قام بأعبائه بقى فيه ، وإلا عزل عنه !

والواجبات المنوطة بالمال كثيرة ، إذ لم يؤدها رب المال تعرض لأنواع شتى من العقوبات ، قد يكون بينها ما يلقى فيه حتفه ويفقد ثروته .

وقد رويت آثار لطاف تشير إلى هذا المعنى ! فعن عبد الله بن عمر : « إن لله عند أقوام نعماً أقرها عندهم ما كانوا فى حوائج الناس . ما لم يملوهم . فإذا ملوهم نقلها إلى غيرهم » وفى رواية « إن لله أقواما اختصهم بالنعم لمنافع العباد ، يقرهم فيها ما بذلوها . فإذا منعوها نزعها منهم فحولها إلى غيرهم » .

وعن ابن عباس « ما من عبد أنعم الله نعمة فأسبغها عليه ، ثم جعل من حوائج الناس إليه ، فتبرّم ، فقد عرض تلك النعمة للزوال » .

وهذه الأحاديث جميعاً تنتظمها الآية الكريمة « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ »

* * *

إن المال لله ملكا ورزقاً ، استخلف فيه الإنسان لينظر أيحسن أم يسيء؟ وقد خلقه وموّله . وجعل الإيمان حق الخلق ، والنفقة حق المال قال تعالى : « آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ . فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » .

والنفقة المطلوبة هنا أعم من الزكاة المشروعة . هى كل ما يفرضه المجتمع من تكاليف لصيانة المصالح الدينية والدنيوية وقد جاء بعد ذلك فى تعليل الأمر بالنفقة قوله : « وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا » .

فالنفقة المبذولة هنا تعنى تضحيات الجهاد من بين ما تعنيه من شتى الأبواب . ولذا صح التفاوت بين المنفقين قبل الفتح يوم كان الأمل فى انتصار الإسلام ضعيفاً و بين المنفقين بعد الفتح عندما أصبح الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً . . .

نقاء المال

لا يكون الغنى طيباً إلا إذا عرفت مصادره فكانت متفقة مع ما شرع الله . و إلا إذا حسن العمل فيه فجرت نفقته على ما يرضى الله .

والأغنياء الذين يجمعون ثرواتهم من هذا القبيل ، و يتصرفون فيها على هذا النحو ، قلة غريبة فى الدنيا ، ولذلك جاء فى الحديث « اطّلعت على النار

فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء » وقصة المال والمرأة تتجدد فصولها فى كل عصر ومصر . وتكوّن جانباً دامياً فى شتى المجتمعات . والمقصود بالأغنياء هنا سُرّاق الجهود ودعائم الطغيان ، والمقصود بالنساء هنا بأنعات الهوى وحبائل الشيطان . . .

والنفوس تهفو إلى الاستمتاع بالثراء العريض والنسوة الفاتنات . بل إن هذه المتعة هى فتنة الطبقات المترفة و بغية الطبقات المحرومة . وهذا التكالب على الدنيا من الواجدين والفاقدين شديد الخطر على شرف الفرد وعفافه بل هو شديد الخطر على كيان الأمة ومقدرتها ، فلا عجب إذا حذر الرسول صلى الله عليه وسلم منه « إن الدنيا حلوة خضرة . وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » .

هل معنى اتقاء الدنيا أن نعيش فيها صعاليك ؟ وهل معنى اتقاء النساء أن نقطع النسل وننهى الحياة ؟ كلا . كلا . فالاتصال بالنساء واجب فى حدود النظم المشروعة والمتعة بهن حلال فى هذه الحدود .

والتزوج بالدنيا مطلوب ! وما دام الاتصال بها عن عقد يهيمن عليه الدين ، فباليمن والبركة . إنما المحظور أن تختلس ثمارها ، أو أن تنتهب خيراتها أو أن ينقلب وضع الرجل فيها ، فبدلا من أن يتصل بها ليكون سيداً لها ، تتصل هى به لتستذله وتفنيه

عن عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله يقول : « الدنيا حلوة خضرة ، فمن أخذها بحقها بورك له فيها ، ورب متخوض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار » .

* * *

إن الإسلام إذ يتدخل فى شئون المال ويراقب آثاره بين الناس ، يهتم بعدة أمور :

١ — أن المال وسيلة لا غاية ، وأن الغرض المقصود من جمعه وإنفاقه يجب أن يستقيم مع الغاية العليا لوجود الإنسان على الأرض .

٢ — أن الفضائل المقررة من عدل وعفاف ، ورحمة وإيثار يجب أن تهيمن على سائر التصرفات المالية .

٣ — أن الإكثار والإقلال لا يسمح لهما بتمزيق أوصال المجتمع وجعل الرفعة والضعة على أساس مادى بحت .

ولا ننسى أن عناية الإسلام بالدنيا جزء من عنايته بالآخرة! وأن اكتراثه بنظم الأرض ليجعلها فى ضمان السماء . ومن ثم فتشاريعه المالية عبادة كفرائضه الروحية سواء بسواء .

إن الزكاة واجبة كالصلاة ، وإن الرِّبا حرام كالزنا أو هو أشد . . . وقد سمى رسول الله العمل لكسب المال جهاداً ، كالعمل لقتال العدوّ ونصرة الدين . وهو إنما يكون كذلك فى الدائرة التى رسمناها . أما عندما يتمخض كسب المال لشهوات الدنيا وزينتها الحائلة ، فالإسلام يقف منه موقف الملام والاستنكار .

* * *

وقد حرم الدين التنافس فى جمع الحطام والمكاثرة به على نحو يُهَوِّن من قيمة الآخرة ومصيرها المرتقب. أو يجعل الحياة الدنيا منتهى الأمل والألم عن المستورد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليم . . فلينظر بم يرجع ؟ » .

ومن نقائض التاريخ أن المسلمين فى عصور التأخر انقسموا فريقين ، فريق عزف عن المال وزهد فيه ! وفريق أكبّ عليه وأترف به ! فأما الزاهدون المغفلون فقد فروا من ميادين الكفاح .

وكيف ينتصر دين ليس له فى ميادين الكفاح أتباع ؟

وأما المترفون ، فقد نسوا الله ، وأضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات . وهؤلاء حرب على الأخلاق والشعوب ، وعلى الدنيا والآخرة .

وهكذا انهدمت الأمة الإسلامية بين القاعدين والفاسدين ، وغام مستقبلها يومَ غامت عليها وجوه الرشد فى سياسة المال .

عن كعب بن عياض قال سمعت رسول الله يقول : « إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتى المال » .

ومنذ عدة قرون ، وهذه الأمة الإسلامية تدخل — من اضطراب توزيع المال وسوء التصرف فيه — فى فتنة بعد أخرى ، ظلمات بعضها فوقَ بعض . وإن منزلتها اليوم بين أمم العالم وما تعانيه من تأخر هو نتيجة مؤلمة لأخطاء أجيال متتابعة من الحاكمين والمحكومين .

***

إن الغرائز النزاعة لما يشبع هواها من زهرة الحياة الدنيا ليست وقفاً على طائفة دون أخرى . وعند ما يحدث فى مجتمع ما أن تسكر طوائفه العليا بخمرة المال فإن النشوة الحرام تنضح بالرغبة على من دونها من شتى الطوائف ، فتتحرك هى الأخرى لتطلب الثراء بأية وسيلة ، ولتشارك غيرها فيما ينعم به من لذة ، وتتحول عناصر الأمة كلها إلى سعى جشع وراء المال . . . لا المال

الذى تبنى به المكارم وتؤسس عليه الأمجاد. بل المال الذى يهدئ الأنفاس المبهورة وراء المتع والنزوات والفساد.

والويل لأمة تصاب بهذا المرض، إنه سيقودها إلى الهاوية حتماً!

ولما كان النبى صلى الله عليه وسلم يعتبر أمته صاحبة رسالة كبرى فى الأرض يجب أن تؤديها بأمانة وإخلاص، وتضحية وإيثار، فقد حذر المسلمين من السقوط فى هذا الدرك من فتنة المال، فقال: « تعِس عبدُ الدينار وعبدالدرهم وعبد الخميصة. إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، وطوبَى لعبد أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه. إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة. وإن كان فى الساقة كان فى الساقة. إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع ».

* * *

وقد لوحظ على حضارة الغرب أنها بذلت جهداً مشكوراً فى التقريب بين الطبقات وإدارة شئون المال على سياسة أدنى إلى العدل فى إنصاف العمال وقمع الحكام. ولكن الغرب الذى أحسن توزيع المال أساء فى الإفادة منه. وكأنه إنما نقم على المترفين القدامى احتكارهم للذة فعمل على إشاعتها بين الجميع، فأصبح الجهد الإنسانى مبذولا فى حب الشهوات من النساء والبنين والقناطيرِ المقنطرة منَ الذّهب والفضة. وتقاربت حظوظ الملوك والصعاليك من هذه جميعاً.

ولا غرو فالحضارة الغربية لا دين لها. وقدجرها الترف إلى البطر فالحسد فالقتال، فهى فى حرب مع نفسها أبداً.

وقد أساء الغربيون إلى أنفسهم وإلى العالم بهذه المادية العارمة . إنهم سادوا بها العالم ، ثم انقلب عليهم وبالها فدمرهم ودمرنا معهم .

وها هم أولاء قد أعادوا البناء ولكن الهدم : « وكم أهلَكنا مِن قَرية بطِرَتْ معيشَتَها فتلك مساكِنُهم لم تُسكن مِن بعدِهِم إلا قليلاً ، وكنا نحنُ الوارِثين » .

* * *

إن « الاشتراكية » الإسلامية تحارب ما أسماه النبي : « الفقر المنسى » و « الغنى المطغى » .

الفقر الذى ينسِّى الإنسان الواجبات ، لأنه محروم من الضرورات ! والغنى الذى يفرِّغ الإنسان للشهوة والمتاع ، لأنه من أرباب القصور والضياع !

(٣)

القعود عن الدنيا هدم للدين

نحو إنتاج واسع وثروة ضخمة

إن الأمم لا تؤدى رسالتها بالمجان ، ولا تبلغ أهدافها عن طريق الفقر والكسل والإهمال . فإن أعباء الحياة أثقل مما يطيق الكسالى وأوسع مما يفكر القاعدون . والرسالات الكبرى — سواء فيها الحق والباطل — تكلف ذويها أن يبذلوا ما عندهم وأن يستنبطوا منابع أخرى تعين على البذل والإنفاق . وحاجة الدولة إلى ضخامة الإنتاج وسعة الثراء كحاجة البدن إلى الغذاء الذى يمده بالحرارة ويحفظ عليه الحياة .

ولقد قرعت آذاننا الأرقام الهائلة « لميزانيات » المعسكرات المتأهبة فى الشرق والغرب ، فرأينا الدول الكبرى ترصد للدفاع أو للهجوم أموالا طائلة . ونحب أن نلقى نظرة عجلى على ميزانية الولايات المتحدة لسنة ١٩٥١ ، ١٩٥٢ ، لنرى كم يبذل هؤلاء الناس فى سبيل التمكين لأنفسهم أو التأمين لمبادئهم — كما يقولون — ثم لنقارن بعدئذ بين ما يدفعه الأمريكان لأداء رسالتهم فى الحياة ، و بين ما يدفعه العالم الإسلامى فى هذا المضمار العتيد .

بلغ تقدير المصروفات التى طلبها مستر ترومان ٧١ مليارا من الدولارات منها ما يزيد على ٤٨ مليارا للدفاع الوطنى والدولى والمساعدات العسكرية الخارجية ، (المليار ألف مليون) ومن الاعتمادات المطلوبة ١٠٠ مليون للاستعلامات والتربية فى خارج أمريكا ! وكلمة تربية هذه واسعة الدلالة ، ونحن فى الشرق الإسلامى ندرى تمام الدراية ما تصنعه الكليات والملاجىء والمؤسسات الأمريكية ، وكنا نحسب موارد هذه المنشآت تأتى من جيوب المتبرعين لجماعات التبشير المسيحى فحسب ! وهذا لا يعنينا الآن .

إنما يعنينا أن نقول : إن الشعب الأمريكى قبل رضىّ النفس أن يؤدى هذه الضريبة الفادحة ، وأنه عرف ما عليه فلم ينكره ، ولما كان أفراد الشعب فى آخر تعداد نحو ١٣٠ مليوناً ، فإن ذلك يدل على أن كل فرد هناك رجل أو امرأة أو طفل ، قد قدم من دخله الخاص للدولة ١٥٠ جنيهاً فى السنة !! فما ظنك بهذا الدخل نفسه ؟ وما ظنك بقيمة رأس المال الذى يدرّه ، وما ظنك بضخامة الأمة التى تضم أفراداً لهم هذا الغنى الواسع ؟ لا شك أن هذا الشعب القوى قد وصل إلى مرتبة من الإنتاج فى ميادين العمل المختلفة تستحق التنويه ، فما منزلتنا نحن فى هذه الدنيا ؟ وما رسالتنا فى هذا الوجود ؟ وما إنتاجنا الذى يخدم هذه الرسالة ؟ إنك لتشعر بالحسرة البالغة ويغص بالجواب حلقك إذا علمت أن متوسط الدخل للفرد فى مصر يصل إلى ثلاثين جنيهاً فقط ! وأن اللغوب وراء الضرورات التى تمسك الرمق هو شغل الجماهير الغفيرة ، والذهول وراء النزوات العاصفة شغل القلة المترفة أما رسالة الإسلام فقد جُحدت أهدافها وطرحت أعباؤها .

***

هل يرجع ذلك الفقر إلى طبيعة الرقعة التى يقع فيها العالم الإسلامى ؟ كلا، فإن أخصب بقاع الأرض تربة ، وأغناها بالخيرات وأحفلها بالمعادن ، وأعظمها سيطرة على الممرات التجارية فى العالم كله ، وأقدرها على التحكم فى الشئون العسكرية والسياسية . . إن ذلك كله يقع فى داخل الدائرة التى يعيش المسلمون فيها كثرة ساحقة . . . وطبيعة هذه الأقطار دفاقة بأسباب الغنى . . . عجزت عن معالجتها الأيدى المشلولة فتلقفتها فى غير عناء ، أيدى العاملين الأذكياء !

***

هل يرجع ذلك الفقر إلى طبيعة الإسلام ؟ كلا كلا .. فالإسلام دين عمل متواصل وكدح طويل ، وليس الإسلام كشريعة من السماء هو الذى يهمل أمر الأرض ويترك كنوزها دفينة لا ينتفع بها أحد أو يترك أتباعه هملا لا يصلحون لشىء ... كيف ونبىُّ الإسلام قد احترف العمل الذى كان يؤديه سواد الناس على عهده ، ففى البادية الخشنة قام برعى الغنم أجيراً لأهل مكة على قراريط من الأرض ! وإخوانه الأنبياء السابقون كانوا أصحاب حرف يرتزقون منها ، كان فيها النجار والحداد والبناء . وأصحابه الذين حملوا شريعته وبلغوا من بعده رسالته كانوا ذوى جد ملحوظ ويسار ظاهر من نشاطهم فى ميادين المال والأعمال ، ونبوغ المسلمين الاقتصادى هو الذى عكر على اليهود مستقرهم بالمدينة وجعل الأسواق تفيض بعزمهم وخبرتهم . ولو كان هؤلاء الأصحاب الكرام بيننا فى هذا العصر لما تجاوزت أزمّة الحياة الصناعية والتجارية أيديهم اللبقة ، ولرأيناهم فى المدائن والقرى آيات من الدأب والكفاح والنجاح . . ولم تكن تقوى الله فى عصور الفهم والإدراك علامة على السذاجة والفراغ والعجز كما هى الآن فى عصر الانحطاط المادى والمعنوى الذى نخبط فى ظلماته . بل انظر إلى واحد من عباد الله الصالحين أوتى خبرة فى الحصون السامقة يلجأ إليه الخائفون من الغزو يقولون « إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ، قال : مامكنى فيه ربى خير . فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً ، آتونى زبر الحديد ، حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطراً ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً » .

إن عباد الله الصالحين ، لو أرادوا مثل ذلك اليوم لاستقدموا الخبراء

الأجانب ووقفوا ينظرون مشدوهين إلى براعتهم وفنهم ! هذا هو صلاح القرون المتأخرة والأجيال المدعية المكذوب . ولقد لانت صناعة الحديد لداود ، وعدَّ الله ذلك من أنعمه عليه وقرن نعمة هذا الإلهام الفنى الرائع بنعمة التوفيق إلى العبادة الخاصة تلك العبادة التى أطلقت لسان داود بآيات التسبيح نغما حلواً تردد صداه الجبال وتشارك فى ترجيعه الطير « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ، وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ، أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً » فى هذا الجو الطهور من الإخلاص لله وشكر آلائه كانت المطارق تدوى ، والسبائك تصــوغ ، والأفران تصهر . . أما اليوم فأمارات الصلاح المكذوب والتقوى المصطنعة أن ترى رجالا يمشون رويداً ، ويكثرون لغواً ، ويأكلون سحتاً ، ويعيشون فى جو من الهمهمة والشعوذة لا عمل فيه ولا كفاح ولا تــكسب ! ! وربما وقر فى نفوس هؤلاء البطالين أن أعمال الحدادة والنجارة والبناء ورعاية الغنم وأمثالها .. ليس مما يليق بالنبلاء وأشراف الناس أن يتكسبوا به ، ولا غرو ! فمن أين لهؤلاء منطق النبوة العالية والرجولة الصحيحة وهم عاطلون قاعدون ؟ إن فلاحاً مغبر الرأس مغضَّن الجبين ينحنى على فأسه ليخط بها سطور الحياة فى حقله ، يجيئه وقت الصلاة فيتوجه إلى الله حيثما آذنته الصلاة ، فى أى مكان من أرض الله التى يعمرها ، هذا الفلاح أقرب إلى فطرة الأنبياء وأدنى إلى رعاية السماء وأعرف برسالة الحياة وحق الأحياء ، من بطين بليد يجلس فى محراب صامت ليدير فى يده حبات مسبحة .

إن العالم الإسلامى خارت قواه المادية منذ جهل دينه وما يستهدفه هذا الدين للإنسانية من هدايات وأمجاد ، واليوم نتلفت ، فنجد الأمم الكبرى تتدفق من بين يديها ومن خلفها ينابيع الثروة التى لا تحقق بهـا هدفاً نبيلا ولا عملا جليلا . أما نحن فننتظر منهم أن يقدموا لنا الإبرة التى نخيط بها ثيابنا

والملعقة التى نأكل بها طعامنا ! بل قد تصل المصيبة المضحكة بهم و بنا إلى حد أن نطلب منهم السلاح الذى نحمى به ذمارنا وندفع به العدوان — أى عدوانهم — عنا . !

إن الإسلام يحملنا صنوفاً شتى من تكاليف الخدمة الاجتماعية والسياسية يجب أن نقدمها للعالم الكبير ، حتى نمثل بحق عقيدة التوحيد ونعرض على أعين الناس مبدأ الإيمان بالله واليوم الآخر ، ومن المستحيل أن نصل إلى عُشر ذلك مع هذا الجهل الغليظ برسالتنا . ولو علمنا حقائق هذه الرسالة الكبرى ، فمن المستحيل أن نسدى لها يداً مع ضآلة إنتاجنا وقلة ثروتنا ، وستظل أبواب الثراء موصدة حتى تطرقها أيدى العاملين المشمرين الساعين إلى خير الدنيا والآخرة .

ليس الإسلام دين قعود ، ولا الأرض التى يحل فيها اليوم من دنيا الناس صفراً من أسباب الغنى ، فلم هذا الفقر ؟ وما سر هذه الصعلكة ؟

يجب أن نعلن حرباً شعواء على البطالة وقلة الإنتاج ، وأن نرد إلى العمل قداسته . ولنعلم أن تكريم القاعدين جريمة ، وأن إثابة عامل دون حقه إهانة لقيمة العمل كما هو بخس لأجر العامل ، وأن الإسلام لا يتصور منتسباً له فارغ النفس من الجد ، فارغ اليد من الشغل ، ولا يقبل أن تدين به أمة مغلوبة على أمرها ، ينزح الأجانب إلى ديارها فيملئون جيوبهم نضاراً ؛ ويخلفون للمواطنين الخانعين فقراً وعاراً . . إن الإسلام رسالة ضخمة لا يطيقها إلا الأقوياء ، ولا يحملها إلا الأغنياء . وعلى العالم الإسلامى أن يسعى حثيثاً ليقوى ويغتنى بالعمل المتواصل فى مواطنه الخصبة المنتجة . و يوم نفقه حقوق ديننا علينا ونرصد لبلوغها ميزانية كبيرة الأرقام تجمع حصيلتها من أفراد ذوى جدة و يسار . . يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

هذه الآفات

الـكسل والعجز والبلادة ليست رذائل خلقية فحسب ، بل هى آفات اجتماعية وكوارث اقتصادية ، طوحت بأقطار شرقية إلى الوراء .

وفقدان العقلية المنشئة ، العقلية التى لا تقنع باستغلال ماتحت يدها ، بل تسعى إلى استنباط قوى جديدة ، العقلية التى تتخطى حدود الفرص المتاحة لتخلق فرصاً بعيدة . ! فقدان هذه العقلية بيننا ، جعل موارد الشرق غفلا وخيراته صفراً ، ومكن للاستعمار الغربى أن يوطد أقدامه ويرفع أعلامه !.

هذه مثلا مصر . كم بها من كنوز مدفونة وثروات مهملة ؟ عندما اعتُقلنا فى طور سيناء أيام الانتكاسات الدستورية التى طالما تعترى بلادنا ، لاحظنا أن هناك أودية رحبة تجود فيها الزروع والفواكه وتـكثر بهـا المياه الجوفية ، وهى مع ذلك لا تجد من يوجه لها عناية أو يلقى لها بالا . ويوجد طوائف من الأعراب أقرب إلى البهائم يعيشون على الطوى . قد يجلس الواحد منهم على شاطىء البحر ليصطاد سمكة أو سمكتين لا يزيد ! على قدر غذائه أو عشائه فقط .

وفى هذه الصحراء وامتدادها جنوباً وشمالا يعيش عشرات الألوف من البدو .. على ماذا ؟ على التهريب ، وعلى الخيانة ، خيانة الوطن لمن يدفع أتفه ثمن .

فى عهد الاحتلال الإنجليزى كان للجيش الزاحف المعتدى أدلة من هؤلاء الأعراب ، وفى أيام الهجوم الصهيونى كان أولئك البدو يُستأجرون لأعمال التجسس وطعن المصريين من الخلف .

فماذا صنعت الحـكومات المتعاقبة لتحضير هؤلاء وحشدهم فى مستعمرات زراعية منظمة تـكثر بهـا ثروة البلاد وتعالج ما طبع عليه أولئك الأعراب من فراغ وفساد ؟ لا شىء . برغم أن حدود مصر الشرقية أحوج ما تـكون

إلى التحصين والتأمين بعد ما اقترب اليهود منها . واليهود عدو ماكر ماهر . وقد استطاع أن يملأ صحراء النقب بعشرات من المستعمرات الغنية بمواردها القوية بأسلحتها .

فكيف يجوز أن تبقى صحراء سيناء وصحراؤنا الشرقية تعج بقطعان من المهربين لاعمل لهم إلا جر الأخطار على البلاد ؟ وإلى متى تظل الأرض الصالحة بهذه المناطق جرداء لا زرع فيها ولا ضرع ؟ ولماذا لا تنتشر فيها الواحات الحافلة بالأزهار والأثمار ، المليئة بالقلاع والرجال كما حدث فى الجهة المقابلة بصحراء النقب ؟. ثم ماذا ننتظر ؟

البقاع المقدسة

ولنترك مصر جانباً ، ثم لنورد مثلا آخر من بلاد الإسلام المنكوب بالأدعياء والمنافقين ؛ لنذهب إلى نجد والحجاز حيث القفار الواسعة والمهامه المقبرة ؛ وإملك تتوهم أن الطبيعة ضنت على هذه البلاد المجدبة ، بينما عمرت غيرها بأنهار تفيض سمناً وعسلا . وهذا خطأ فاضح ؛ فالقحط فى هذه الديار الجافية ، قحط أخلاق لاقحط أرزاق ، والفقر السائد هناك فقر مصطنع تعاونت على التمهيد له حكومات مجرمة ، وقبائل تحيا هنا وهناك كالسائمة .

يقول[1] الأمير (شكيب أرسلان) : « من الأغلاط المشهورة الظن بأن بلاد الحجاز مجدبة ، وأنها من القحولة بحيث لا تتحمل عدداً من السكان يزيد على أهاليها الحاضرين . يقولون : إن الحجاز ناشف يابس وأنه كثير الحجار والحرار ، قليل الرياض والغياض . وهذا كله من الكلام المرسل بدون تحقيق . يقوله من لا يعرف الحجاز ! أو يقوله الكسالى من أهل

(١) فى كتاب « الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » المطبوع سنة ١٣٤٠ هجرية ..اا

الحرمين الشريفين الذين يبدون ويعيدون أمام حجاج بيت الله الحرام ، وزوار الروضة النبوية ، فهم يسهبون فى الحديث عن فقر الحجاز تعمداً منهم ليستزيدوا بر الحجاج بهم ، ويستدروا عوارف العالم الإسلامى عليهم .

وحقيقة الحال أن من عرف جزءاً من الحجاز — لا كله — علم أن الحجاز إذا قام أهله على فلحه وزرعه حق القيام أعاش منهم ملايين بالراحة التامة وأصار إليهم من الخيرات ما لا يذكر موسم الحج إلى جانبه شيئاً ! . ولقد رأيت على مقربة من مكة وادى فاطمة الممتد إلى وادى الليمون مسافة خمس عشرة ساعة . فرأيت جنة من جنان الله فى أرضه لا تفضلها بقعة لا فى الشام ولا فى مصر ولا فى العراق . . » .

فلماذا — بالله — تعيش جمهرة الشعب على التسول وتلك إمكانيات الأرض التى تدب فوقها ؟ وما هو عمل الحكومات القائمة إذا كان السواد الأعظم يذوب مادياً وأدبياً فى حلقة محكمة من الفراغ والتعطل ؟ وهل يبغى الاستعمار الصليبى أكثر من ذلك لو أنه باشر الحكم فى هذه البقاع ؟ .

إن كلا الاستعمارين من داخلى وخارجى يستمد بقاءه من مهانة الأمم وتقييد حركاتها وشل نشاطها . وإنه لمن المؤسف ألا تزال بلاد الإسلام — وفى مقدمتها الأماكن المقدسة — تضطرب فى مهاد الذل الذى هيأه لها هذا الكابوس المزدوج من الاستعمار .

* * *

يقول الأمير « شكيب أرسلان » : لما كنت فى المدينة المنورة قبل الحرب العامة سنة ١٩١٤ م ، وجلت فى عواليها والبقاع التى تليها ، وشاهدت زكاء تلك الأرض وسمعت خرير مياهها . . قدّرت أن البلد الطيب وحده لو بقيت سكة الحجاز الحديدية متصلة به لتحمل نصف مليون نسمة

ولما تكاءده أمر معيشتهم ، وقد بلغ سكان المدينة قبل الحرب الأولى خمسين ألف نسمة فلما تآمرت انجلترا وفرنسا على قطع السكة الحديدية بين الشام والحجاز ، وجحدتا حقوق المسلمين فيها تقهقر العمران فى المدينة وضواحيها ، فهبط سكانها إلى خمسة عشر ألفاً ، كما أن جميع القرى التى ازدهرت على جوانب الخط تراجعت بسرعة إلى الوراء ، كمعان وتبوك ومداين صالح . الخ » .

قال الأمير المسلم : « إن التخوف من عمران الحجاز أهم الأسباب التى دفعت الدولتين الاستعماريتين إلى المعارضة فى تسليم سكة حديد الحجاز إلى المسلمين فانجلترا وفرنسا اللتان تتحكمان فى مائتى مليون مسلم تكرهان أن يكون لهم ملجأ تهوى إليه أفئدتهم ، وتتوافر فيه أسباب الراحة ، ويستعد لاستقبال الملايين فيه لا سيما الحجاز ، لا سيما الحجاز » .

واستطرد الأمير يذكر الأماكن الصالحة للزراعة . فأشار إلى إمكان تعمير خيبر وهذا حق . فخيبر — كما قرأنا فى كتب السيرة — كانت بلاداً تفيض بأطيب المحصولات . وكان يهودها يدلون بغناهم على عرب الجزيرة . وقد اتخذوا منها قواعد عسكرية محصنة ناوشوا بها الإسلام حيناً ، ثم أجلوا عنها أخيراً ، وقد تقهقرت خيبر الآن ولا يقيم بها سوى بعض الأجراء من السودان ، ألفوا الحمى التى تنتشر فى مستنقعاتها .

وإننا ندهش لأن رذيلة الكسل وخلق البلادة قد تحولا إلى تقاليد معقدة من تقاليد الشرف المكذوب والنبل السخيف ، فكثير من العرب يحتقر الفلاحة ويزرى على الفلاحين ولا يزال هذا السفه شائعاً بين العوام فى صعيد مصر . ولعل هذه التقاليد التى تستكبر على العمل (!) هى

التى نشرت التسول والفقر ، واستقدمت الاحتلال من أقصر طريق ! !
ولا يزال العرب عندنا يتعالون على تزويج بناتهم من الفلاحين لأن الفلاحة عار . والبطالة شرف . . . ! !

ومن الأماكن المستطاع تعميرها وتثميرها ، وادى القرى والحجر . قال أبو عبد الله السكونى : « كانت قديماً منازل ثمود وعاد . وبها أهلكهم الله وآثارها إلى الآن باقية ، ونزلها بعدهم اليهود . . فاستخرجوا كظائمها وأساحوا عيونها وغرسوا نخلها . فلما نزلت بهم القبائل عقدوا معهم حلفاً . وكان لهم فيها على اليهود طعمة وأكل فى كل عام نظير حراستها من سائر العرب » . وهذا تصرف عجيب ! .

وروى أن معاوية مرّ بوادى القرى ، فتلا قوله تعالى : « أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ » . ثم قال هذه الآيات نزلت بأهل هذا الوادى فأين العيون ؟ فقال رجل : أتحب أن أستخرجها لك ؟ قال : نعم . فاستخرج ثمانين عيناً ! ! قال معاوية : الله أصدق من معاوية . . . ووادى القرى اليوم خراب . ! !

* * *

إننا نحب أن نصارح قومنا بأن أساليبهم فى الحياة لن تؤدى إلا إلى فنائهم . إن الأجيال تجدّ وهم يهزلون .

وصراخهم فى طلب الحقوق سيعد نباحاً ما لم يثبتوا جدارتهم بما يطلبون ، بل إن أهليتهم لهذه الحقوق ستكون موضع ريبة بالغة مالم يتحولوا فى بلادهم إلى رسل للحياة والتعمير ، والنشاط والتدبير .

هذه سنة الله فى كونه ولن يزيغ عنها إلا هالك .

الفساد السياسى أخبث علل المسلمين

من البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه لا لمن يبصره ! .

منذ أمد بعيد وأحوالنا تجرى على هذا النحو ، مصلحون يرون الأخطار ويرفعون عقائرهم بالتحذير منها ، وعميان يقودون القافلة — بسلطات مبهمة — إلى هذه الأخطار نفسها !!

يبذل هؤلاء المصلحون جهودهم بالقلم واللسان لتبيين الرشد من الغىّ وميز العدل من الجور وفضح العقبات التى تسد السبيل القاصدة أمام المسلمين ، فإذا بهذه الجهود تذهب بدداً تحت وطأة الطغيان الحاكم بأمره هنا وهناك .

وكثير من بواكير الإصلاح أهيل عليها التراب قبل أن تتبسق وتنمو فلحقها الموت فى مهدها ..

قتل جمال الدين وهو يحارب استبداد الملوك على عهده ومات عبد الرحمن الكواكبى منكمشاً بعد ما صودرت كتبه وحوربت مدرسته . وقضى محمد عبده وهو يحس مرارة الهزيمة فى حلقه ..

وفى الأيام الأخيرة أراد وزير فدم أن يطوى أعلام نهضة إسلامية ضخمة ، ظلت تعمل عشرين عاماً حتى وسعت مئات الألوف من الشباب ، فاستصدر بإيعاز من سادته أمراً عسكرياً بحل « الإخوان المسلمين » ثم قتل « حسن البنا » أقدر زعيم عرفه الشرق فى العصور الأخيرة وفتحت المعتقلات والسجون لأتباعه ليذوقوا وراء جدرانها العذاب الأليم . . .

يا للهِ للمسلمين ! رجل واحد يملك هذه الصولة كلها . فيسجن أمة ويوقف نهضة !

إنها أزمة فى الرجولة يعانيها هذا الشرق البائس . لا ندرى متى تنزاح ضائقتها؟

* * *

نقول ذلك ونحن نذكر هنا ما دونه منذ ثلاثين سنة الأمير « شكيب أرسلان » وهو يعالج إصلاح الجزيرة العربية ويتقدم بالمقترحات الناجعة لرفع مستواها وتدعيم شأنها . . ومات الرجل المجاهد ولم ينفذ له رأى .

قال الأمير شكيب « إن الحجاز فيه بقاع كثيرة فى الدرجة القصوى من الخصب والزكاء ولكن ينبغى لها المال والعلم . لابد من بناء السدود وحفر الآبار لاستنباط المياه ومن الاعتماد فى السوانى على الآلات الرافعة الحديثة والدواليب الهوائية . . .

أما المال اللازم لهذه المشروعات فله طريقتان :

الأولى : تنظيم الميزانية المالية لحكومة الحجاز .

ونسارع نحن إلى التعليق على هذا المقترح الذى طالب العقلاء به منذ ثلاثين عاماً فالمعروف أن الحجاز ليست له ميزانية عامة لمصالح الشعب وأخرى خاصة لشئون القصر . بل المال الوارد كله للجيب الخاص .

وتوجد فى العالم الآن بضع وستون دولة فيها دول كافرة ووثنية ومجوسية ومسيحية ويهودية . وليس فيها كلها مثل هذا الوضع الذى انفردت به الأسر الحاكمة فى الأردن واليمن والحجاز .

وهذا الوضع الزرىّ هو الإسلام ! الذى لا يعرفه الله ورسوله . ! ! نعم هو الإسلام . . . وإن كانت صلة هذه التصرفات بالإسلام هى صلة الجهل بالعلم والفوضى بالنظام . .

قال مستر « موريسون » وزير خارجية انجلترا وهو يتحدث عن مشكلة البترول بين دولته وإيران « إن الحكومات — فى إيران — فئة من الناس تستغل جهود العمال لتزداد ثروة وقد كان المفروض أن تنفق هذه الحكومات الأموال التى تأخذها ثمناً للبترول فى إصلاح الحالة الاجتماعية . ولكنها بدلاً

من أن تغص ذلك حولت هذه الأموال عن الطريق القويم الذى كان يجب أن تسير فيه . إلى طرق أخرى » .

وهذا الكلام ينطبق عليه قول الرسول الكريم : « صدقك وهو كذوب » فانجلترا جرثومة الفساد السياسى الذى أهلك الشرق وأذل بنيه . وتشبثها ببترول إيران هو تشبث اللص بسرقته بعد يقظة رب البيت وأهله وإسراعهم لتخليصها منه .

ولكن كلام الوزير البريطانى فى اتهام الطبقات الحاكمة صحيح وإنه لأشد ما يكون صحة بالنسبة إلى الحجاز وموارده الغزيرة من البترول .

* * *

أما الطريق الثانى لتنظيم واستثمار موارد الحجاز فهو تأليف شركات إسلامية كما يقول الأمير شكيب من مصريين وعراقيين ونجديين الخ . . . والاقتراح معروض منذ ثلاثين سنة على ما قرأنا . وقد مات فى الكتب التى شرحته كما مات كثير غيره من توجيهات المصلحين .

وتولت الشركات الأمريكية أعباء الاستغلال وأعمال التثمير والإنشاء . ومن وراء هذه الشركات تزحف الجبهة الاستعمارية الغربية وتضع أيديها على شرايين حياتنا ودعائم ثروتنا .

والذين استقدموا هذه الشركات ومنحوها أوسع الامتيازات على حساب العروبة والإسلام هم طواغيت الاستعمار الداخلى المنكود . .

وهكذا تختنق دعوات الإصلاح الحر ! وتضرب القافلة الشاردة فى طريق عمياء ! يقودها المترفون الناعمون ، ويضيع فيها الإسلام والمسلمون .

* * *

إن كبراء المسلمين أقل الناس حظوظاً من الأمانة النفسية والكفاية

العملية ، وربما كان قدماؤهم يعترفون بتعاليم الإسلام فى ظاهر الأمر إلا أن هذا الاعتراف لا يعدو الشئون التافهة والتقاليد الفارغة .

فإذا اصطدم الدين بملذاتهم الخاصة نبذوه وتنكروا له . إن الدين فى نظرهم يجب أن يمشى فى ركاب الولاء وأن يتهيأ أبداً للتضحية والفداء كما قال شوقى للسلطان عبد الحميد :

يفديك نصرانيهُ بصليبه والمنتمى لمحمد بهلاله . . !

وإذا قبل السلطان — الذى ضنّ على أمته بالدستور — هذا الفداء فله الشكر . أما قيمة الأنبياء والرسالات والوحى بعد أن فُدى بها واحد من الكبراء . فأمر لا يكترث له .

أما كبراء العصر الحاضر فينفرون من الإسلام نفوراً شديداً . ويعتبرون التعصب له معرة شنيعة .

وهم فى حكمهم يظهرون تجردهم من كل نزعة إسلامية .

والبلبلة التى سكبت الماء البارد على حرارة الأمة الإسلامية الناهضة جاءت من هذا الفريق الكافر بربه وأمته .

إن الأخوة المتساندة فى العمل ، المتكافلة فى الرزق ، المتساوية فى الحق ، المتناصحة فى الدين ، المتقاسمة الشر فى الضراء ، والخير فى السراء ؛ هى لب الإسلام وقلبه . وما عداها فهو سخف حكام وصغار شعوب .

(٤)

توزيع الملكيات

الإسلام يرفض أن توجد طبقة مّا تحتكر الثروة ، وتستولى بغناها الفاحش على التوجيه الاقتصادى . وهو يدرك النتائج الوخيمة لتكوُّن مثل هذه الطبقة فيحول دون تكوينها ، ويمنح الحاكم الحرية فى اتخاذ الوسائل التى تعينه على إقامة التوازن بين طبقات الأمة المختلفة .

وبيان ذلك أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه لما هاجر إلى المدينة كان الأنصار مطمئنين فى وطنهم يقيمون فى ديارهم ، ويستثمرون أرضهم ويعيشون فيها عيشة رخية على عكس المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ؛ إذ صادرها مشركو مكة واغتصبوها منهم ، فلما استقر بهم المقام فى المدينة قام المجتمع الإسلامى على نوع من الأخوة الفاضلة كان الأنصار فيه أصحاب البذل الجميل والسماحة المشكورة حتى انطلقت ألسنة المهاجرين بالثناء وهم يذكرون ذلك للنبى ويقولون له : « لقد ذهب الأنصار بالأجر كله ! ما رأينا قوماً أحسن بذلا لكثير ولا أحسن مواساة فى قليل منهم ، ولقد كفونا المؤنة ! ! » .

ولقد شكر الله ورسوله هذا الصنيع الكريم لأصحابه ، إلا أن إبقاء هؤلاء المهاجرين من غير أملاك مستقلة يأوون إليها وينفردون فيها يجب ألا يطول كثيراً . ومع أن المسلمين انتصروا فى موقعة بدر ، إلا أن الغنائم لم يكن بد من توزيعها على كل من اشترك فى القتال وقام بدوره كاملا — وفى هؤلاء كثرة كبيرة من الأنصار — ومن ثم ظلت الحالة الاقتصادية على ما هى عليه حتى حدثت موقعة بنى النضير ، فرأى الرسول الفرصة سانحة لإعادة التوازن الاقتصادى — إذ اعتبر هذا الفيء ملكا خاصاً له — فجعل الغنائم من

أرض ومال وقفاً على المهاجرين ، إذ لا معنى لأن يزداد الأنصار غنى على غناهم بينما أكثر المهاجرين فى قلة ظاهرة من المال .

قال الزهرى : « كانت غنائم بنى النضير للنبى خالصة إذ لم يفتحوها عنوة بل فتحوها على صلح ، فقسمها النبى بين المهاجرين ، لم يعط الأنصار منها شيئاً ، إلا رجلين كانت بهما حاجة » .

وفى ذلك يقول القرآن « مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ... » ثم يقول : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ . . » .

ومن الغلط أن نظن أن إعادة هذا التوازن كان موقوفاً على غنائم القتال ، فقد كان النبى يبدى رغبته تلميحاً أو تصريحاً — فى عهود السلام — كى يعاد التوزيع على أساس عادل ، ويسن من التشريعات ما يراه منتهياً إلى هذه الغاية ، فعن جابر بن عبد الله قال : كان لرجال منا فضول أرضين . فقالوا نؤجرها بالثلث أو الربع أو النصف فقال الرسول : « من كانت له أرض — أى واسعة — فليزرعها ، أو يمنحها أخاه ، ولا يؤاجرها إياه ولا يكريها » ! !

فهذا التخيير بين أن يزرع الرجل أرضه كلها وحده ، وبين أن يمنح أخاه المسلم بعضها ، مع تحريم استئجار المزارعين لما يكاد ينضح بالرغبة الصادقة التى يتقدم بها الرسول إلى كبار الملاك كى يشاطروا الرجال الذين يستطيعون العمل أرضهم الواسعة بدل أن يشغلوهم فيها لقاء أجر معلوم ، ويدل على هذا ما رواه ابن عباس كذلك أن النبى صلوات الله عليه وسلامه خرج

إلى أرض وهى تهتز زرعاً ! فقال : لمن هذه ؟ فقالوا : اكتراها فلان . فقال « لو منحها إياه كان خيراً من أن يأخذ عليها أجراً معلوماً » .

والحديث يشير إلى أن المنح خير من المنع ، ولا يتضمن سياقه أمراً حاسماً بضرورة التقسيم العقارى على العمال الزراعيين . وذلك حق . فإن وصايا النبى لأصحابه فى هذا الأمر الخطير كانت تخضع لبواعث شتى من مقتضيات المجتمع الذى يعيشون فيه ، ولذلك فهى متكاثرة متغايرة . لاختلاف الرجال شحاً وجوداً واختلاف الأحوال عسراً و يسراً .

ولقد كان الأنصار على عهد رسول الله هم كبار المزارعين . وقد أثبت التاريخ لهم من فضائل البذل والإيثار والتضحية ما لم يثبته لقوم فى الأولين والآخرين ، ولقد كانوا « يحبون من هاجر إليهم . ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا . ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » و بيئة مثل هذه البيئة لا تجد سلطة القانون موضعاً فيها لتعمل عملها الباطش العنيف . وما دام الرجل يعطى أكثر مما يطلب منه ، وينفق أضعاف ما يكلف به . ويقدم ضرورات غيره على ضروريات نفسه ، فمن العبث بقيم الرجال أن تجنح إلى سيف القانون تهدد به وتتوعد !! فما أكثر ما تغنى التقاليد عن القوانين ، ألست ترى إلى انجلترا ؟ إن برلمانها أعرق البرلمانات فى العالم ، ومع ذلك لا يقوم النظام البرلمانى فيها على مواد مكتوبة بل على عرف مقرر محترم لا يكاد أحد يميل عنه قيد أنملة ، بينما توجد بلاد أخرى تكتب فيها المواثيق بالدماء ومع ذلك لا ترعى لها حرمة . و بلد كالولايات المتحدة يوجد فيها من كبار الملاك من يجودون بالملايين لخدمة الأغراض الاجتماعية وتدعيم النواحى الإنسانية، وأنواع البر هناك لم تشك قط جفافاً فى مواردها . فإذا ارتكس هؤلاء القوم وانهارت تقاليدهم العامة فلم تعد لها سلطة القوانين الحازمة فستضطر انجلترا إلى

تدوين تقاليدها البالية فى كتاب ، وستضطر الولايات المتحدة إلى تسجيل ديموقراطيتها الاقتصادية فى صحائف حمر ، كذلك كانت أحوال المسلمين فى دار الهجرة على عهد النبوة ، أدت التقاليد الفاضلة رسالتها ، بل قامت بأ كثر مما يجب عليها . ونظر الرسول إلى جمهور الشعب فوجده رضى النفس لا يشكو من ضيق هو بعد لمّا يولد ، ولا ينقم على سرف هو بعد لمّا يوجد فجاءت وصاياه بشأن توزيع الملكية ترغيباً لا يبلغ حد الإلزام بل لعله — وهو يرسل هذه الوصايا — كان ينظر إلى مستقبل الأمة على مر الأيام ؛ ولذلك رأينا الأحاديث السابقة تحض على التطوع بهذا التوزيع ، إذ لم تكن ثمة ضرورات توحى بإجرائه « حكومياً » وتنفيذه « رسمياً » بعد ما كفلت التقاليد الآنفة وقوعه « عملياً » فى أغلب الأحيان والأحوال .

أما إذا تغيرت النفوس ، وحلت الأثرة مكان الإيثار ، وتزاحم الناس على المورد المحدود كل يبغى أن يستبد به دون غيره . أما إذا لم تجد إلا شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثَرة ، أما إذا لم نجد إلا طبقات مسترقة ، وطبقة مؤسرة ، فهنا يتدخل القانون — باسم الله ورسوله — ليحقق الحكمة التى عناها القرآن عند تقسيم الملك والمال فقال « كى لا يكون دُولَة بين الأغنياء منكم » .

موضع الفرد من الحياة العامة

يصف الإسلامُ اللهَ عز وجل بأن رحمته سبقت غضبه ، ويعتبر الشرائع التى أنزلها على العباد أداة لإقرار الخير بينهم ، ورفع الحرج عنهم « ما يُريد الله ليجعلَ عليكمُ من حَرج ، ولكن يريد ليطهركم وليُتم نعمتَه عليكم لعلَّكم

تشكرون » ويقرر أن الخصائص الأولى لرسالة الإسلام الأخيرة ، هي تخليص الإنسانية من أعبائها التي انقضت ظهرها وأثقلت كاهلها وحبستها عن الحركة الحرة أعصاراً متطاولة ، ثم يرد إلى هذه الإنسانية اعتبارها المسلوب ، ويحدد وظيفة النبيّ بين الناس بأنه جاء إليهم « يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ويحلُّ لهمُ الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث » . . وبهذه الكلمات القلائل العميقة الدلالة نظف الإسلام حقيقة « التدين » مما علق ولا يزال عالقاً بأفهام الكثيرين — للأسف البالغ — من أن التدين يعني دائماً الحياة الجافة والمعيشة الهون ، والزهادة البليدة واليد التي لاتدرك قيمة المال ، والنفس التي لا تفقه معنى الجمال ، والمسلك الذي يجعل البيت قبراً قبل القبر ، والدنيا فناء قبل الموت والعمر حرماناً من كل استرواح ونعمة ! !

وعبارة القرآن في تكذيب هذه الظنون ، وتسفيه أصحابها تنطوي على غضب كبير وتبرم ظاهر « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً. قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ؟ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ؟ ؟

فالدين في الحقيقة يعرف الإنسان بمتاع الحياة ، ويهيىء له سبل الانتفاع به ويكلفه لقاء ذلك أن يشكر الله عليه ، ويفهمه أن الأرض والسماء وما بينهما لخدمته ، وأن ما انبث في فجاج الأرض من خيرات ، وما انتثر على آفاق السماء من كواكب . وما اتسق في نظام الكون من جمال وبهجة ، إنما هو مهاد ميسر للحياة الإنسانية كيما تتأنق . وتزدان

فنظرة الدين للإنسان كبيرة ، والموضع الذي يطلبه له من الحياة العامة خطير ، وهو لا يفترض له إلا المعيشة الكريمة ، لا المعيشة التي يستكمل فيها

ضرواته فحسب بل التى يستكمل فيها مباهجه ومرفهاته ، وبهذا يكون أهلا لفهم خطاب الله وتذوق ما فيه من معان وأغراض ! !

ولإيضاح ذلك نورد أن القرآن مثلا يقول : « أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً؟» ترى من يفهم هذا القول ؟ ومن يحس بما فيه من إدلال بالنعم وتذكير بالفضل ؟

أهو الإنسان المكفول فى معايشه ، القوى على أيامه ، المفتوح المشاعر لما فى الحياة من خير وجمال أم الإنسان المشرد الذهن ، الموصول بالدنيا من أحلك شئونها وأنحس حظوظها ، فهو لا يحس بما توحى به الآية من أن السموات والأرض مسخرة له ، بل يحس بأنه مسخر — روحاً وبدناً — لكل من السموات والأرض ! وإذا تحدث القرآن عن الآلاء التى أنزلها الله لعباده كافة : « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا » فمن الذى يدرى فتنة البساتين النضرة ، ونفحات الحدائق العطرة ؟ أهم سكان مدننا المحرومون من المتنزهات العامة المحبوسون فى أزقة تملأ القلوب وحشة والعقول ضيقاً ؟ أم غيرهم ممن أخذوا أنصبتهم وفوق أنصبتهم من الأشعة والرياضة والرحلات إلى الأقطار البعيدة بعد أن ملوا النظر إلى ما حولهم من قصور وجنان؟ . وإذا ذكر القرآن حياة الفلاح فى ريفه الهادىء الباسم وشرح حالته فى غدوه ورواحه إلى حقله قال : « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُون » فمن الذى يعرف هذا الجمال ، وتشيع الغبطة فى نواحى نفسه حين ينغمس فيه ؟ أهم رقيق الأرض الذين يزرعون القمح ويأكلون الطين وينتجون القطن ويعيشون عرايا ؟ .

إن الإنسان الذى يعيش تحت المستوى المعقول اللائق به والذى لا يأخذ القدر المقسوم له من نعم الله وفضله — وهو قدر كبير جداً لو وصل إلى أصحابه سالماً — هذا الإنسان المنكود يقل نصيبه حتما من التكاليف الدينية والإنسانية ، وهو لن يبلغ درجة التقوى فى تدينه إلا إذا أخذ نصيبه المعلوم من مال و بنين وجنات وعيون كما يقول القرآن حين يحض الناس على تقوى الله « وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ » فأية حال منكرة تلك التى ينظر فيها الكثيرون إلى أنفسهم فلا يجدون لهم شيئاً من ذلك كله . وهل ترشحهم أحوالهم الضنكة هذه للخطاب الإلهى الكريم ؟ إن الهيان الشارد على وجهه أبداً ، لا يعرف معنى الإلف و إن طال حنينه إليه ، والمحروم التائه عن حقه أبداً ، لا يذوق طعم الحياة و إن عاش فيها ، فإذا استكان فى بيئته إلى عجزه وفاقته فهو — بعض إنسان — لا إنسان كامل ، ألم تر أن القرآن الكريم جعل من خصائص الرقيق أنهم لا يقدرون على شىء ، وأنهم لا يملكون أى شىء ؟ أما الإنسانية الحرة الطليقة فهى التى تملك أن تنفق ، وأن تتسع فى وجوه الإنفاق : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ،وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ . الْحَمْدُ لِلَّهِ . بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ » .

العمل وحده

وما دام مكان الفرد فى الحياة العامة بهذه المثابة الجليلة ، فلابد من صيانة حقه فيه ، ولابد من إعطائه الوسائل التى تبلغه إليه ، ولابد من حياطة هذه الوسائل حتى تثمر الخير لأصحابها وحدهم ، فلا يسرق نتائجها العجزة والكسالى والقاعدون ! وهذا لن يكون إلا بتنظيم الأعمال العامة تنظيما دقيقاً محكما ، فمن نكل عنها نكِّل به ! ومن تأخر فيها دفع إلى الوراء وأخرت منزلته

ومن أحسن فيها كان حقيقاً أن يأخذ حظه الموفور من الحياة الصحيحة . إن الله عز وجل جعل منازل الناس فى الدار الآخرة — وهى أكرم عنده وأعز عليه — بالعمل العظيم لها ، فلا ظلم فى أن نجعل منازل الناس فى الدنيا بالعمل لها كذلك : « ولكل درجاتٌ مما عملوا وليوفيهم أعمالَهم وهم لا يُظلمون » ومن ثم فمن الفوضى أن تكون الدنيا نصيب القاعدين ، وأن تكون التعاسة نصيب العاملين ! ! والعمل فى الإسلام هو الوظيفة الطبيعية لكل حى ، وهو سر الخلق وحكمة الوجود : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » « هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » . والأعمال الدينية المحضة لا تستغرق من عمر الإنسان كبير وقت ، فالصلاة مثلاً لا تشغل من ساعات اليوم والليلة إلا وقتاً يتراوح بين ١ ٪ ، ٢ ٪ فكيف تنقضى سحابة الليل والنهار بعد ذلك ؟ يقول القرآن : « فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ » ومسرح العمل رحب المذاهب واسع الميادين يشمل الأرض برها و بحرها وخصبها وجدبها « هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ » . أما استقصاء أبواب العمل ووجوه النشاط العمرانى وأسباب النجاح الاقتصادى فموكول إلى الرجال الذين يتقنون فن الحياة ، ولا يضيعون الأعمار لغواً وسهواً ، ومع أن القرآن كتاب حياة حارّة ينبض بالتوجيه العارم إلى الجهاد الدائم ، فإن أساليب العمل ملتوية جداً فى أيدى المسلمين ، والانتشار فى الأرض الذى أمروا به عقيب الصلاة لا يعد وفى اتساع خطوه حركات السلحفاة ! ومناكب الأرض التى ذكرت فى كتابهم ضاقت فى أذهانهم كثيراً حتى أصبحت لا تتجاوز مضطرب الرجل بين دار صغيرة وزراعة حقيرة ! ! مع أن التدين الصحيح يموت فى هذا الجو الخانق — كما أسلفنا — جو الصعلكة

والمسكنة . إن الإسلام وثيق الصلة بالكون والحياة ، ولا يمكن البتة عزل حقائقه الأولى عن العالم المتحرك الذى نصبح فيه ونمسى ، ذلك أن الإيمان فى تعاليم هذا الدين يقوم على النظر فى الكون ، والعبادة فى تعاليم هذا الدين تقوم على العمل فى الكون ، ومعاش المسلم ومعاده كلاهما لا ينحصر فى صومعة ولا ينعزل عن آفاق السماء والأرض ، وإلا انعزل عن أسباب حياته . والآيات الكريمة التى تدعم إيمان المسلم بربه عن طريق ربطه بمظاهر الطبيعة ، تبصره — فى الوقت نفسه — أن هذه المظاهر الطبيعية مصادر نعمة له ، وموارد رزق يطعم منه وينتفع به . وأنت تشعر بذلك أتم الشعور عندما تقرأ قول القرآن الكريم : « اللهُ الّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون . وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ . إنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون» . فالبحر مثلاً هنا مورد اقتصادى يستغله المؤمن استغلالاً مادياً ، ليقيم به حياته المدنية المجردة . وهو كذلك مورد معنوى حافل بأسرار القدرة وبسطة الخلق وعظمة التكوين ؛ فهو من هذه الناحية مثار تفكر وتدبر وإيمان !! والناحية الاقتصادية فى الآية هى الأساس الذى بنيت عليه الناحية المعنوية . وعلى هذا النحو استعرض القرآن مافى العالم ليقرر أن النظر فى الكون إيمان ، وأن العمل فيه عبادة ، وزاوج الإسلام بين عمل الإنسان لربه وعمله لنفسه ، فأصبح كلا العملين يتخذ من الحياة مجرى واحداً ، وفهم المسلمون من ذلك أن حاجة الدين للدنيا كحاجة الروح للجسم ، فكما أن الرجل يحتاج ضرورات مادية تقيم كيانه وتحفظ حياته وإلى كماليات يبتهج بتوفرها ويسر وإلا فلن يستطيع عملا ، فكذلك الدين يتطلب قوى مادية وأعمالا عمرانية تعينه على تحقيق أهدافه وأداء رسالته ، وإلا فسوف يجمد ويموت . . . ويستحيل

أن يبلغ المتدينون رسالة ربهم ، إلا إذا فهموا منطق الحياة المادى ، وصححوا غلطهم القديم نحوه ، وقدسوا العمل فى المزارع والمصانع والمتاجر كما يقدسون العمل فى المساجد سواء بسواء . . هذا العمل هو الذى نريد جعله ميزان الرجال ، يثقل بهم أو يخف على حسب جهدهم ، ولا يجوز احترام الأسباب المصطنعة الأخرى التى يجنح إليها الفاشلون كى يحصلوا على المال والجاه ، فمن كان فقيراً فى عمله وجب أن يكون فقيراً فى ماله ، ومن كان مكثراً فى ماله فيجب أن يكون ذلك ناشئاً عن إكثار فى العمل . وتوزيع الأموال على اختلافها ينبغى أن نراعى فيه وجه الحق ، وأن نسترشد فى ذلك بقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « إن أقواماً يتخوضون فى مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة » ولا غضاضة على كبار الملاك أو صغارهم ، إذا هم نزلوا عند رأى الدين فى هذه الأمور .

نظريات مختلفة

مما ذكرنا آنفاً يتضح أن الإسلام يرتفع بموضع الفرد فى الحياة العامة مادياً وأدبياً ، ويأبى أن توجد طائفة بله أمة من الناس تعيش فى مستوى منحط من الفاقة والحرمان ، وأبنا أن تفاوت الناس فى اقتسام معايشهم ، يخضع قلة وكثرة — فى نظر الإسلام — لقيم الأعمال التى يؤدونها ، ومن هاتين المقدمتين تنكشف بعض النواحى الاشتراكية فى هذا الدين ، ونحب الآن أن نعرض لطائفة من الأفكار الحديثة المتصلة بهذا الموضوع ليزداد الأمر وضوحاً .

الفكرة الرأسمالية تقوم على حرية العمل والاستثمار والتملك ، وترى أن الفرد ما دام واسع الذكاء والحيلة ، جم النشاط والسعى ، فله أن يحوز

مايشاء من مال ، مادامت سوق المنافسة حرة ، ومادامت طرائق الجمع مشروعة ، ومن الظلم أن توضع القيود والعوائق أمامه ، لتشل إنتاجه فى ميادين العمل المختلفة .

وهذا كلام وجيه فى ظاهره ، ولقد لقى قبولا ورواجاً فى القرون الأولى ، ثم لوحظ على مر الأيام أنه لا يكاد ينفك عن المآخذ الآتية :

١ — تستبد بالرأسماليين شهوة جمع المال من كافة الوجوه الممكنة ، فلا يبالون باستغلال جهود العمال ، وانتقاص حقوقهم ، وتسخير مواهبهم ، فما ينسب فى النهاية إلى صاحب المال من نجاح وما يضاف إلى اسمه من ثروة ، ليس كله فى الحقيقة له .

٢ — ينسى الرأسماليون حقوق الله والناس فى أموالهم ، ويتهربون من أداء الواجبات الدينية والاجتماعية المنوطة بهم ، ويحولون ثرواتهم على عجل إلى كنوز ميتة يقل انتفاع الأمة بها أو ينعدم .

٣ — إذا كان من بين هؤلاء من يعين فى مشروعات الخير ، ويساهم فى نواحى البر ، فإن ثرواتهم تنتقل بنظام التوارث إلى أقوام لا عمل لهم ولا غناء فيهم .

٤ — وجد أن البيوت المالية الكبرى تتعاون على قتل صغار الرأسماليين الناشئين ؛ وترصد من مصروفاتها ما يفسد الأسواق أمام النشاط الاقتصادى لهؤلاء ، وبهذا يضيع معنى التنافس الحر .

٥ — ظهر أن مجتمعات الرأسماليين تغص بفنون اللذائذ الرخيصة ، وتنضح بعوامل الفساد العريض ، وأن روح الكفاح والمثابرة والجد التى تظهر جلية على مؤسسى هذه الأسر تفنى تماماً فى أعقابهم .

على أن هذه المآخذ تختلف نسبتها بين قطر وقطر ، ويقل الإحساس بخطورتها بين شعب وشعب . وقد عالجتها الحكومات بفرض الضرائب القاسية ، وسن تشريعات العمل الكثيرة . ولكن الداء فى مكمنه باق عنيد وقد تخف حدته أو تثقل وطأته تبعاً لضعف الرقابة عليه أو يقظتها . ولذلك فالمشاكل بين العمال وأصحاب العمل لا تزال فى مقدمة ما تجتهد هذه الأمم لوضع الحل الحاسم له قدر المستطاع . وموقف الإسلام من هذا النظام ومن مآخذه المعروفة يعود إلى قواعده العتيدة المقررة فى أصوله التشريعية . . . قواعد منع الضرر ، ورفع الحرج ، وسد ذرائع الفساد ، ورعاية مصالح العباد وهى مبادئ دينية يسع الأمم أن تجنح إليها لإثبات ما تبغى لنفسها من نظام ، ومحو ما لا تود من أوضاع ، وتغيير ما لا يلائم أحوال العصر من قوانين .

أما الفكرة الشيوعية فى طورها الأخير فتقدم أساساً للتنظيم الاقتصادى يعتبر مغرياً للطبقات الضائعة — من الناحية النظرية — أما الناحية التطبيقية فلم تتح لنا أسباب دراستها حتى يتيسر الحكم عليها ، وإن كنا نلاحظ عموماً أن ثمة مبالغة فى سيطرة الدولة على الفرد وفى مصادرة مبدأ الملكية مصادرة عنيفة شاملة ، مع أن الحاجة ماسة إلى جعل المرافق العامة وحدها ملكاً للدولة . أما المرافق الخاصة التابعة للملكيات الخاصة فلا ضير على الشعب من بقائها تحت أيدى أصحابها

وتنص المادة العاشرة من دستور الجمهوريات السوفيتية على أنه (يحمى القانون للمواطنين حقهم فى الامتلاك الشخصى للدخل الناتج من عملهم ومدخراتهم والمنازل التى يقطنونها وأثاث البيوت والأمتعة والأدوات المخصصة للاستعمال الشخصى ولتوفير الراحة . . . وحقهم فى وراثة الملكية الشخصية) — أى المنقولات — والمادة الرابعة تدلنا على القاعدة العامة التى يخضع

لها مبدأ الملكية هناك ، فهى تذكر أنه (يشتمل الأساس الاقتصادى للاتحاد السوفيتى على نظام اقتصادى اشتراكى وملكية اجتماعية للآلات ووسائل الإنتاج) كما تقرر المادة الخامسة أن (الملكية الاشتراكية إما أن تأخذ شكل تملك الدولة فتكون الثروة للشعب عامة أو شكل الملكية التعاونية أو الجماعية) — ملكية مزارع جماعية منفصل بعضها عن بعض . أو ملكية الجماعات التعاونية .

ونحن نورد هنا محاورة شيقة من كتاب « نفسية الرسول العربى » محمد ابن عبد الله للأستاذ لبيب الرياشى ، تلخص المبادىء اليسارية وموقف الإسلام منها .

المؤلف : من منكم يعلم أسس الشرائع الشيوعية والمبادىء الظاهرة العلمية التى ترتكز عليها .

توفيق — وهو الشاب المتطرف فى عقائده السياسية ، وقد اعتنق فى ماضى حياته المبادىء الشيوعية — ينتفض انتفاضة من مسه سلك كهربائى ويقول : إن منهاج الانترناسيونال الثالث يلخص فيما تسمعون :

أولاً : إلغاء ملكية الأفراد للأراضى ، واعتبارها ملكا للدولة مؤجرة للأفراد الذين يدفعون أجرتها للحكومة .

ثانياً : فرض ضريبة تدريجية على الدخل .

ثالثاً : إلغاء حقوق الوراثة .

رابعاً : إنشاء مصرف مركزى يتولى هو وحده إقراض الأهلين .

خامساً : جعل جميع طرق النقل والاتصال من سكك حديدية ، وبواخر وقطر ترام ، وتلغرافات ، وتليفونات — ملكا للدولة .

سادساً : توسيع نطاق المعامل ، والمصانع التى تملكها الدولة .

سابعاً : إنشاء جيش من العمال للزراعة والصناعات الوطنية .

ثامنــاً : تنظيم العلاقة بين الصناعة والزراعة .

تاسعاً : إلغاء الفروق بين الطبقات وجعل السلطة المطلقة بين أيدى العامة.

عاشراً : إلغاء النقد ورءوس الأموال ومنح كل فرد من أفراد الأمة ما يحتاج إليه وأخذ ما يفيض عنه .

حادى عشر : يقول كارل ماركس : إن الدكتاتورية هى شرط لازم للمبادئ الشيوعية .

المؤلف : إن إلغاء ملكية الأفراد ، وتسليم الحكومة وحدها المصرف المركزى وطرق النقل والاتصال ، والمعامل — كما تقول المادة الأولى والرابعة والخامسة ، والسادسة . معناها أن واضعى هذه الأسس يتصورون الحكومة قسطاس حكمة وميزان عدل ، حتى إذا ما حكمت حكما مطلقاً دكتاتورياً أنصفت الناس كافة .

إنها لقصيدة شعرية خيالية بزت ألوانها وصورها — ألوان قصيدة دانتى وصورها . أما من ناحية التشريع المحمدى فإنها بمثابة احتكار . احتكار فئة كبرى من البشر جلست على كراسى الحاكمية — لتتصرف بمطلق الحرية والسلطان بمقدرات البشر ، ونشاطهم وجهودهم . تبدل احتكار الشركات باحتكار جيش من رجالات السلطة . الله أعلم بسرائرهم ، وإن الاحتكار أيها الأدباء — محرم — فى التشريع المحمدى

قال المشرع الأعظم فى أحاديثه :

« الجالب مرزوق والمحتكر ملعون »

وقال : « بئس العبد المحتكر : إن أرخص الله الأسعار حزن . وإن أغلاها فرح » .

وفى وصية الإمام على الوصية التى هى دستور الحكم الراشد بين الوالى والرعية ، وقد وجهها الإمام السامى للأشتر النخعى لما ولاه مصر ، قال موصياً بالتجار وذوى الصناعات :

« واعلم مع ذلك أن فى كثير منهم ضيقاً فاحشاً ، وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع ، وتحكماً فى البياعات ، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة . فامنع من الاحتكار فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منع منه .

وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين حلال ، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع . فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به وعاقب فى غير إسراف » .

صادق : أما البند الثانى القائل بفرض ضريبة تدريجية على الدخل فليس فى هذا التشريع إبداع واستكشاف ، لأن الزكاة والصدقة من أسس التشريع المحمدى . أما البند الثالث القائل بإلغاء حقوق الوراثة فمناقض للشريعة الإلهية التى تعلن الفرائض بصراحة وقد جاء فى سورة النساء « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ ، مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ — نَصِيباً مَفْرُوضاً » إلى آخر ما ورد فى الفرائض ، وكلها تأمر بأن يرث الأهل الأقربون لا الحكومة .

أما البند التاسع القائل : « بإلغاء الفروق بين الطبقات وجعل السلطة المطلقة فى يد العامة » فإنه تشريع لا يقره عقل ولا يتسامح به منطق لأن الإنسان يتفاوت فى أخلاقه وكفاءته وقواه العقلية والجسمانية ونشاطه تفاوتاً يزيد أو ينقص ، وليس بين العلوم البشرية ما يخالف هذا التفاوت الحقيقى : « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَات » فهل من العدل أن ينال العامل الخامل العقيم ما يناله النبيه الذكى النشيط .

سعد : وهنالك تشريع للشيوعية لم يذكره الرفيق توفيق — يتعلق بالله والإلحاد ، ومشاعة المرأة ، وسيطرة الحكومة — على الأطفال — بعد الثانية من عمرهم .

إنه لتشريع يناقض العقل كما يناقض شريعة المشترع الأعظم محمد بن عبد الله .

صادق : ذاك تشريع يذكره السيد سعد ، نمر به مر الكرام .

المؤلف : إذن لا توافق بين الشرع المحمدى السامى الجليل والشرع الشيوعى ، جل ما يفهمنا إياه هذا التشريع ، أن فئة كبرى من البشر رضخت تحت وطأة فئة انغمست فى الظلم وتمرغت فى أتون الاستبداد وسوف تنفذ فيها الشريعة التى أعلنها الإمام على منذ أربعة عشر قرناً .

« إن يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم » .

ليون : حقاً إن الشرع المحمدى غنى فى التشريع الإلهى والاجتماعى ، فاجلسوا إلى موائدكم ، وكلوا منها طيباً ، إنكم بغنى من فضل ربكم عن الاستعطاء التشريعى واستجداء الفضلات من موائد الأغيار .

حسبكم أن تكونوا يقظين ، ناهين مخلصين لتقطفوا من شرعكم السامى — أنبل الشرائع وأطهرها — نفحة تعيدكم إلى حظيرة الحق والهدى فتنتصف الروح ، وينتصف العقل ، وتنتصف اليد العاملة

صادق : حقاً يا سيد ليون ، إنك من رجال العلم المثقفين المحللين[1] » .

* * *

إن المآخذ التى نوردها نحن المسلمون على النظام الشيوعى تلتقى عند أصول

---

(١) هذه المحاورة آثرنا إثباتها كاملة لأنها تصور فكرة أديب مسيحى منصف عن الإسلام وعن الشيوعية .

ثلاثة . فى واحد منها فقط ما يزهدنا فى الشيوعية فكيف بالثلاثة مجتمعة ؟ .
ومع علمى بتوفر هذه السوءات فى النظام الشيوعى فقلما أبحث لنفسى أن أحمل عليه بالأسلوب الذى لا يفيد منه الإسلام أبداً . بل تستفيد منه نظم أخرى هى فى اعتقادى لا تقل عن الشيوعية خطراً وإلى القارىء الكريم البيان :

* * *

أول ما يطالع العين من مقابح الشيوعية فلسفتها المادية القائمة على الإلحاد والإباحية . إن الحياة البشرية تتحول فى ظلال هذه الفلسفة الجافة إلى إنسان « ميكانيكى » لا يدرى من وجوده إلا ما يزحم المعدة من وقود ويثير الغرائز من شهوات ويهيج المطامع من حروب . ثم تنقطع الصلة بين الإنسانية وبارئها سبحانه . ويتحول الرجال والنساء إلى رقيق للأرض وعبيد للمصنع ! ! ونحن المسلمين لا نرضى البتة بهذه الصورة الجاحدة من التفكير .

بيد أننا إذا رفضنا هذا الإلحاد الاقتصادى الشيوعى فليس معنى ذلك أننا نرضى بالإلحاد الثقافى أو الإلحاد التشريعى أو الإلحاد الاجتماعى الذى يسود بلادنا فى ظل الرأسمالية الجاثمة على صدورنا .

فإذا قيل لنا حاربوا الشيوعية لأنها إلحاد . فلنقل : سنحاربها ولن نسكت عن الرأسمالية التى تحتضن أفانين من الكفر والعبث والمجون . بل هذه أولى بالكفاح السريع فهى عدو مقيم . أما الشيوعية فعدو بيننا وبينه أميال وأميال . .

والمأخذ الثانى الذى سجله العالم كله على النظام الشيوعى أنه نظام يقوم على الاستبداد السياسى، وخنق الحريات العامة، و بسط سيطرة الدوله على كل شىء فى الأمة فبينما يستطيع البرلمان الإنجليزى أن يسقط الوزارة التى لاتحوز ثقته مثلا . ويمهض النظام الديمقراطى فى البلاد المستمتعة به على أن الناخب

يأتى بالنائب ، والنائب يأتى بالحاكم فالشعب هو أولا وآخراً مصدر الحكم ومرجع الاعتبار . تجد أن الأوضاع السياسية فى الاتحاد السوفيتى تقوم على النظام الهرمى . وأن الرأس فى هذا المثلث نقطة الارتكاز التى يقوم عليها الحكم كله ! .

فهو الذى يختار الوزراء والنواب . والشعب كذلك إن أمكن ! وهذا هو الحكم الاستبدادى البغيض . فإذا قيل لنا حاربوا الشيوعية لأنها إلحاد ثم لأنها استبداد . قلنا لا بأس . وينبغى أن نحارب الاستبداد فى صوره كلها . وأن ندعم نظم الشورى فى بقاع الشرق الإسلامى عامة . حتى إذا ذاق الناس طعم الحرية المبذولة والحقوق المصونة أنفوا الاستكانة إلى سطوة فرد والخنوع فى كنف جبار عنيد .

أما أن تصاب الحياة الدستورية بنكسات فى الوطن الإسلامىّ الكبير ، ويعيش كثيرون من أهله عبيداً جاهلين بمعنى الديمقراطية لأنهم لا يذوقون لها طعماً . فليس هذا مما يعنينا على مقاومة الاستبداد الشيوعى قط مهما كتبنا ومهما خطبنا . .

والمأخذ الثالث على الفكرة الشيوعية أنها تصادر مبدأ الملكية مصادرة عنيفة شاملة .

والملكية نوعان : ملكية إنتاج وملكية استهلاك ، والشيوعية تعطى الناس حق الامتلاك والادخار لما يكسبون من أعمالهم وجهودهم . فهى تبيح الثانية وتحرم الأولى .

ومعنى هذا أن الدولة لا تتدخل هناك فيما يملكه المرء إذا اقتصر انتفاعه منه على شخصه ، أما إذا حاول فيما يمتلك أن يسخر الآخرين فى عمل تدخلت الدولة فى الحال مانعة .

فلك أن تبنى بيتاً تسكنه . وليس لك أن تؤجره ! والحقيقة أن مبدأ الملكية مضيّق عليه جداً فى روسيا ومطلق الحدود جداً هنا . والتضييق الشديد هناك حرم المباح . والإباحة المطلقة هنا جعلت الكثير يمتلك عمارات وتفاتيش من أبواب هى السحت عينه .

ونحن نحب أن نحارب الشيوعية ولكنا نريد من الناس وقد أباح لهم الإسلام حق التملك ألا يعبثوا به ويستغلوه أسوأ استغلال لأكل الحرام والحلال .

وهذا لا يغض من مبدأ (إعطاء كل قدر حاجته ، وتكليف كل قدر طاقته) ، الذى أقام عليه الشيوعيون دولتهم الماثلة .

إن رسالة الأحياء — فى نظر الإسلام — أن يعملوا دائماً ، وتكليفهم بالعمل لابد أن يتخذ إحدى طرائق ثلاث : إما أن يكلفوا بالسعى والكفاح فى حدود طاقتهم ، وإما أن يكلفوا بما هو فوق طاقتهم ، وإما أن يكلفوا بما هو دون طاقتهم ، وتكليف المرء بالعمل فوق استطاعته لم يقل به شرع ولا عقل « لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » وتكليفه بما يعد دون مواهبه وملكاته وأوقاته ، خلق للفراغ واللهو والكسل ، وقتل للذكاء والإتقان والإجادة . وهذا من الآفات الاجتماعية التى بليت بها الأمم المتواكلة فى الشرق .

ولم أر فى عيوب الناس عيباً   كنقص القادرين على التمام

فلم يبق إلا تكليف كلٍّ قدرَ طاقته .

وإعطاء المال للإنسان يأخذ هذه الطرائق الثلاث نفسها ، إن أعطى دون حاجته حرم وظلم ، وإن أعطى فوق حاجته أترف ونعم فأسرف وأفسد ، فلم يبق إلا أن يعطى قدر حاجته ، وأن تحزم الدولة أمرها فى تنفيذ هذا القانون الدقيق .

ومعلوم أن حاجات الناس تتفاوت كما وكيفا وأن استحقاقهم لما يحتاجونه

يتفاوت كذلك . وهذا لا يقف عقبة فى سبيل تنفيذ هذا الشطر من المبدأ الذى بين أيدينا . . غاية ما هنالك أنه يفرض تحرى الحق و إصابة الواقع حتى تأخذ العدالة مجراها الصحيح فى أوسع دائرة لما بين الناس .

وهذه الأفكار التى سقناها عن الرأسمالية والشيوعية ، لا نخدم بها إلا البحث العلمى المجرد ، أما واقع الحياة فى مصر فإن الصراع فيه ليس بين نظام رأسمالى ونظام شيوعى كما هى الحال فى بعض أمم الغرب ، ولكن الصراع هنا بين نظام إقطاعى موجود ، وعدل اجتماعى منشود . أى بين بقايا من ظلمات القرون الوسطى و بين طلائع التطور الإنسانى الحديث . ونحب أن يعرف حكم الله فى هذا النزاع ، وأن نقرر نظرية الإسلام لنجيب بها أسئلة ملحفة ، ونطمئن أفئدة متلهفة : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وعَدْلاً ، لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ » .

مخدوعون . .

فى هذه البلاد شباب قد يصفون أنفسهم أو يصفهم غيرهم بأنهم « بلاشفة » ، ولو ذهبت تستقصى حقيقة هذا الوصف ما وجدت له عند أكثرهم أثراً . غاية ما هنالك أن هؤلاء الشباب غاظتهم مهانة الجماهير وصفاقة الكبراء ، وهاجتهم وطأة الاحتلال الداخلى والخارجى وضعف المقاومة المعدة له . على كثرة الخطب والصياح من المستوزرين وطلاب المنافع ! فكان من امتزاج هذه العواطف السليمة وانعدام الموجه الرشيد لها ما وسمها بالطابع اليسارى .

ولا ريب أن هذا عنوان غلط لمعان صحيحة وفى الاشتراكية الإسلامية متنفس رحب لهذه المشاعر المكظومة كلها .

أعجبنى من قصيدة للأخ الشاعر أحمد فرح الفالوحى قوله :

ما حياة الشعوب فى ظلماتٍ من سياط الإرهاب والتهديد ؟
وهل المترفون للنصب والنهـب وأنتم للمدح والتمجيد ؟
دفنونا فى مصرع الفقر أحيـاء وشادوا القصور فوق اللحود !
نحن للزرع والتجارة والصنـع وأسيادنا لصرف النقود !

* * *

كم زعيم فى الشكل من صنع باريـس وفى العقل من عصور الجليد !
طلب المجد فى الموائد والميسـر والرقص وابنة العنقـود
جنحوا للمفاوضات فى الغرف البيـض فصرنا إلى الخطوب السود !
لا تسلهم عن الكرامة والشـعب وسلهم عن الهوى والغيد
طعنوا المسلمين فى القلب لما سلموا قلب دينهم لليهود !

* * *

لا ترد الحقوق فى مجلس الأمن ولكن فى مكتب التجنيد
إن ألفى قذيفة من كلام لا تساوى قذيفة من حديد

* * *

هبَّ من قبل حقبة حسن البنـاء يرسى قواعد التوحيد . !
فإذا الغرب ثائر . وإذا الأذ ناب يرضونه برأس الشهيد !
كلما قام مصلح يفضح الظـلم أطاحت به حراب العبيد

* * *

يا شباب الإسلام قد برّح القيـد فهلا انتفضتم من رقود !
مالكم والمبادىء الصفر والحمـر وقرآنكم منار الوجود . !
يدفع المسلمين للعلم والإنتـاج قبل التسبيح والتحميد

إنما نحن وحـــدة مزقتها دول الغرب باصطناع الحدود
إن يوماً يلمنا من شتات هو للمسلمين أسعد عيد!!

الملكيات الزراعية فى مصر

غصب الحقوق من أهليها يعد من أقبح المظالم التى جاء الدين بتحريمها، وتنفير الناس من الوقوع فيها، وغصب الأرض خاصة جريمة فاحشة، والعبث فى حدودها المعروفة بغية الاستيلاء عليها أو على جزء منها مثار لعنة دائمة وفى ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه «لعن الله من غَير تخوم الأرض» والجزاء المعد لذلك يوم القيامة يثقل كواهل الغاصبين «من ظلم قيد شبر من الأرض طُوقه من سبع أرضين» وفى رواية أخرى «من أخذ شبراً من الأرض بغير حق خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين» وذلك لأن نهب العروض والمنقولات قد يستهلك ويقف أثره عند حد، أما اختلاس الأراضى فيبقى دهراً طويلا بالبيع الحرام والإرث الحرام ونحوهما ويترك ندوباً غائرة فى جسم المجتمع تظل مثار اضطراب وألم. وأنواع النهب تختلف آثارها وتختلف أجزيتها، وشر ما رهب منه الإسلام وجعله ماحقاً للإيمان ودافعاً إلى سخط الله «أن ينتهب الرجل نهبة — ذات خطر — يرفع الناس إليه أبصارهم حين ينهبها — عجباً من جرأته —» ونهب الأرض لا يعدو هذا القبيل الشنيع.

***

ونحن إذا استعرضنا تاريخ التملك الزراعى فى مصر، فى العصور الأخيرة، لم نجد إلا ظلالاً سوداً لفوضى التمليك والتملك، والاستهانة بالحقوق، والمحاباة

للمحاسيب والأجانب ، والتجاهل لقيم العمل والعمال ، والغفلة عن مستقبل الأمة ومصاير بنيها ! .

وعلة ذلك عدم قيام حكومات شعبية تسأل دستوريا عن تصرفاتها ، مما جعل الحكم الفردى يتورط فى سلسلة من الأخطاء والتصرفات لم تنج الأمة إلى اليوم من عقابيلها ! .

وهذا الذى حدث كان بقية من فلسفة الحكم التركى فى معاملة الشعوب على عهود الغشم والافتيات ؛ إذ كان السلطان يعد نفسه المالك الطبيعى للأرض أليس هو النائب الشرعى عن مالك الملك سبحانه ؟؟ فله إذاً حق التصرف فيها كيف يشاء ، ونبادر فنثبت حكم الإسلام فى هذا الفهم العجيب ، وهذا التلصص الحكومى البائد ، قال رسول الله صلوات الله عليه وسلامه : «من كان لنا عاملا فليكتسب زوجة ، و إن لم يكن له خادم فليكتسب خادماً ، و إن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكناً » قال أبو بكر : أخبرت أن النبى قال : « من اتخذ غير ذلك فهو غال أو سارق » ! ! فهل هذا الهدى النبوى هو الذى اعتمد عليه السلاطين فى السطو على الأرض ، ومصادرتها من أصحابها ، واعتبار أنفسهم ملاكا فيها نيابة عن الله ؟ والله عز وجل لا يعتبرهم إلا أجراء لدى جمهور المسلمين فحسب ! !

ما حدث لها وما ينبغى أن يحدث

لا تُسمع الآن إلا أصوات خافتة قليلة تهمس بضرورة توزيع الملكيات الكبيرة ، وتقييد ما يملك منها فى المستقبل ، وقد قدم مشروع برلمانى بذلك ، غير أنه قوبل بصدود بالغ ، وانتهزت أول فرصة للتخلص من صاحبه وسمعت صيحات الاستنكار جهيرة من رجال الدنيا ومن رجال الدين !!

كأن التفكير فى ذلك إثم يشين صاحبه ، والله يعلم أين يستقر الإثم أفى السكوت عن مداواة المرض المستفحل؟ أم فى الطب له ومحاولة إنقاذ الأمة من براثنه ؟؟

لقد جاء على الملكيات الزراعية حين من الدهر كانت كلها فى يد الوالى ، رفعت عنها أيدى أصحابها الذين عاشوا فوقها كادحين . وماتوا تحت ثراها لاغبين وسوغ ذلك بأنه إجراء اقتضته المصلحة العامة ! ثم عجزت الإدارة بعدئذ عن استغلال الأرض ففكرت أن تعيدها على الشعب من جديد ، مرتبطة بأثقال فادحة من الضرائب والإتاوات ، فكان الناس يفرون من الملك ومغارمه ! ثم وزعت بطريقة الاقطاع أو الاستيلاء أو الشراء الصورى ، وخضع توزيعها للحظ الذى :

يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما ــ لكنها خطرات من وساوسه !

فكانت النتيجة التى سجلتها الإحصاءات المتكررة ، أن عشر معشار المصريين يملكون تسعة أعشار الأرض ، والباقى يملك العشر الأخير ، الفاضل من نصيب الأسد .

***

فهل يعتبر تقييد الملكيات نداء آثماً فى مثل هذه الأحوال المريبة و بين هذه الطبقات الكثيبة ، فإن يكن هذا إثماً فما تكون العدالة والاستقامة والحسنى فى معالجة الأمور ؟

ثم هناك الأرض الواسعة التى تملكها المرابون الأجانب . إن تجهل الطرق الخبيثة التى تمكن بها هؤلاء المرابون من طرد الفلاحين عن زراعتهم ليس إلا تجاهلا لنصوص الإسلام نفسها ، فما أخذ هؤلاء الأرض إلا نظير الديون الفاحشة الربا ، والأرباح المركبة البعيدة عن التصور التى فرضوها ، فكانت الجنيهات القلائل يخرجها الخواجة المقرض ، لتصطاد له بعد سنين

أمدنة بأسرها . ومبالغ الربا فى نظر الإسلام ، كديون القمار فى نظر القانون ، لا يجوز الاعتراف بها ولا بما ترتب عليها ، فطرد هؤلاء الأجانب من الأملاك المصرية واجب محتوم !

ثم هناك الأرض التى أقطعتها الحكومة للشركات المستغلة فى شمال الدلتا وغيرها كيما تقوم على إصلاحها ، فاستخدمت هذه الشركات جماهير الفلاحين المدربين الذين استماتوا فى تحويلها إلى جنان ناضرة ، ثم أخرجوا منها بالأساليب المنحطة التى اتبعت فى تسعير الأرض وتقسيط ثمنها فاستردتها الشركات من جديد . مع أن الذين أصلحوها هم أحق الناس بملكها على مقتضى القاعدة الشرعية « مَنْ أَحْيَا مَوَاتاً فَهُوَ لَهُ » .

إن مضى الزمن ، وتنقل المواريث ، لا يحل الحرام ، ولا يبيح المحظور ، ولا يسلب السرقة صفتها الأولى ليوارى سَوْءتها فى لباس خداع ، والإصلاح الدينى لذلك الفساد واضح لمن شاء الأخذ به « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ . إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا » !!

فى إطار أسود

بين صدور الطبعة الأولى والطبعة الثانية من هذا الكتاب ، نقل إلى اللغة العربية كتاب « الأرض والفقر فى الشرق الأوسط » اعتمدت فيه مؤلفته « دورين وورنر » على منشورات المؤسسة الملكية للشئون الدولية بلندن

والإنكليز هم طليعة خبراء العالم فى فهم المشاكل الاقتصادية لهذا الجزء الحساس من العالم ولهم سياسة خاصة فى تعقيدها أو تهوينها على النحو الذى يخدم مصالح امبراطوريتهم وحدها .

ونحن نقتبس فقرات مما يخص مصر ، ويتفق مع رأينا الذى أثبتناه فى غير ما كتاب من كتبنا . تقول المؤلفة :

« ومع أن الإنتاج الزراعى فى مصر لا مثيل له فى العالم كله من حيث مقداره ، إلا أن دخل الفلاح فيها أقل دخل فى أقطار الدنيا كلها ، ومن المؤكد أنه أوطأ دخل للفرد فى أى قطر أخذ بأسباب الزراعة الحديثة و يتمتع برأس مال كبير .

أضف إلى ذلك أن ظروف الفلاح المحيطة به رديئة جداً . فالأمراض الو بيلة التى تهدد حياة الناس سببها ما يتبع فى البلاد من أساليب الريّ .

وليس للناس من مستوى للحياة ، فالوجود فى هذا العالم هو المستوى المقبول عندهم . وأى شىء دون ما يعيش فيه الفلاحون معناه الهلاك » .

وتقول الكاتبة « إن أسهل السبل وأقصرها للتغلب على مشكلة الفقر هى أن تنهج مصر نهج بلاد شرق أوربا ، فتسارع إلى تقسيم ما لديها من أراضى زراعية على الذين لا يملكون أرضاً من الفلاحين ، أو الذين يملكون قطعاً صغيرة لا يكفى إنتاجها لسد أودهم » .

ونحن لا نعرف النظام الذى تعنيه الكاتبة بالضبط . وما نقترحه لمشا كلنا ينبع من فكر إسلامى مستقل . ونحن نؤيد المؤلفة كل التأييد فيما تقوله بعد ذلك « لا توجد فى بلاد العالم عوائق سياسية تحول دون تحقيق هذا الإصلاح أقوى مما هى فى مصر . فالباشوات المصريون المهيمنون على ما تنتجه البلاد والمتمتعون بثرواتها وخيراتها والقابضون على مرافق القطر بأيد من حديد يفعلون بها ما يشاءون . . وهم يعارضون أى إصلاح من شأنه أن يرفع مستوى المعيشة ، كما أن فى البلاد كثيراً من الإقطاعيات الواسعة ، تمتلكها شركات كبرى وقد زالت الروابط الإنسانية من علاقات هذه الشركات بمستخدميها وعمالها ومع أن الحكومة تسيطر سيطرة تامة على الإنتاج إلا أنها لا تستعمل سلطاتها للحد من بأس أصحاب الأرض . لأنها تمثل فئة الملاك من الشعب » .

* * *

وتعود بنا المؤلفة القديرة إلى الصفحة المنطوية من تاريخ مصر الحديث فتقول « إن ماجرى فى وادى النيل من أحداث خلال القرن الماضى أدى إلى دعم سيطرة الملاك وزيادة بأسهم فقد تمخضت الإصلاحات التى قام بها محمد على باشا عن الاقطاعيات الكبيرة ولئن قضت تلك الاصلاحات على سلطان جباة الضرائب الذين كانوا يسيطرون على البلاد أيام الحكم العثمانى فإنها عوضتهم بدل ما فقدوه من سلطة أراضى شاسعة . ثم ضاعف هؤلاء أملاكهم بما أضافوه إليها من مساحات جديدة » .

ثم قالت : وفى عهد إسماعيل ملكت تلك الأراضى إلى الأغنياء تمليكا نهائياً وقد تضاعفت الأراضى الزراعية خلال القرن التاسع عشر بنسبة ٧٠٪ مما كانت عليه قبلا ويمتلك أغلبها الأغنياء من المصريين .

وجاء دور الاحتلال الأجنبى فقوى سلطة الأغنياء — بل أعطى الخونة من أتباعه مقداراً آخر من التفاتيش والعزب —

ولا ريب أن الحركة الحقيقية التى عرفتها مصر والتى كان يؤمل منها الخير للبلاد هى ثورة عرابى باشا الذى كان هو نفســه فلاحاً ولكن الإنجليز — لاحظ أن الكاتبة انجليزية — لكن الإنجليز أخذوها بقصفهم مدينة الإسكندرية عام ١٨٨٢ .

وتستطرد الكاتبة الموفقة فتقول : ليس من أمل لإصلاح نظام ملكية الأرض حتى ولو كان ذلك على نطاق محدود ما دام توزيع الثروة وأسلوب الحكم باقيين بشكلهما الراهن .

إن إصلاح نظام ملكية الأرض يتوقف على إحداث تغييرات سياسية جوهرية ، وإلا فستصبح مشكلة الأرض يوماً ما الدافع الرئيسى إلى قيام ثورة فى البلاد . »

* * *

ونحن نكره الثورات . ونكره ما يؤدى إليها من عوج وفوضى ، وما يعقبها من مذابح ومظالم .

ويزداد كرهنا لهذه الثورات إذا كانت حمراء ، تحرق وحى السماء إلى جانب ما هاج أحقادها من غبن وافتيات .

وأسلوبنا الذى نؤثره تغليب الروية على النزق . ولعل الحكمة تسود الموقف آخر الأمر

وقد ساءنا ما ذكره المعرب الأستاذ حسن السلمان عن أحوال العراق — وهو بصدد الكلام عن إمكان هجرة الأيدى العاملة من مصر —

فقد قرر حاجة العراق إلى فلاحينا الذين لا أرض لهم ! ! ثم استدرك : « لكن ذلك يتوقف إلى حد بعيد على إحداث تغييرات سياسية فى هذا القطر أيضاً . وإلا كانت الهجرة إليه بمثابة نقل الفلاحين المصريين من عبودية إلى عبودية أخرى . . . »

أرأيت ؟ ؟ .

إن المسلمين بشر فى كل مكان ! !

وليهنأ كبراؤنا . مع آفاقهم المذهبة .. هناك بعيداً عن الفاقة والحرمان .

فوضى التمليك ونكبة فلسطين

يخطىء من يحسب الهزيمة الشنعاء التى لحقت بالمسلمين فى الأرض المقدسة حدثاً عارضاً ، أو طعنة وجدت منفذها الدامى من جسم مكتمل سليم !

فالحقيقة أن العار الذى صبغ وجوهنا فى هذه الجولة الأولى من مأساة فلسطين . كان نتيجة متوقعة أو محتومة للأسباب الكثيرة التى تجمعت من

قبل ف أحوال الأرض التى اغتالها اليهود ، وفى أخلاق الأهلين الذين عاشوا فوق هذه الأرض .

إن مشكلة فلسطين كانت نتيجة أخطاء القرون السابقة ! .

من الذى باع أرض فلسطين لليهود ، وأمضى بيده صكوك البيع للبقاع الشاسعة التى بنى عليها اليهود مستعمراتهم الحصينة ؟ .

من الذى قدم لليهود الدعائم التى بنوا عليها دولتهم فى صمت ؟ والتى استطاعوا منها الوثوب على بقية فلسطين وتضييق الخناق على أهل البلاد ، وعلى الجيوش التى ذهبت لإنقاذهم — كما يقال — ؟ .

إن الذى فعل ذلك هم كبار الملاك !

هم طبقة الأفندية الذين يساوون فى مصر طبقة الباشوات !

هم أصحاب الإقطاعات التى منحت لهم أو لآبائهم بالجبت والطاغوت ، منحها لهم السلطان التركى أو نوابه من الولاة اللصوص .

هؤلاء الغرباء على الأرض وعلى الزراعة وعلى العمل والإنتاج هم الذين باعوا لليهود أرض الوطن ليضيع الوطن كله — من بعد — .

أما الفلاح الذى يملك القليل وتربطه بأرضه الضيقة أقدس روابط الألفة والحياة والمحبة . فقد ظل بأرضه حتى قتل فيها أو طرد منها .

وهكذا تحمل المسكين فى الحرب والسلم خطايا الكبراء الحاكمين .

خيانة وكبر

ومن أعجب ما يصور لك سفالة هؤلاء « الأفندية » من باعة الأرض لليهود ، ويوضح لك نظرتهم الحقيقية إلى جمهور الشعب أن أعرابياً من البدو انتقل — بسحر ساحر — من صفوف العامة إلى صف أصحاب الثراء والجاه

وعلم الأعرابى المحظوظ أن واحداً من ذوى الإقطاعات الكبرى يريد أن يبيع أرضه لليهود فأرسل إليه يعرض أن يشترى منه الأرض بالثمن نفسه الذى عرضه السماسرة الصهيونيون .

ولكن ابن الكرام سليل الحسب والنسب هاج وماج لهذه المساومة ، وأبى أن يكون الطرف البائع فى صفقة يكون طرفها الآخر فلاح مهين ! ! إن انتقال الأرض لليهود أشفى لنفسه وأحفظ لكبره . . .

هذه الفجوة العميقة بين المترفين والكادحين التى تجعل المهانة نصيب العامل والاعتزاز نصيب العاطل ، رأيتها فى مصر كما علمتها فى أقطار العروبة الأخرى . حتى لقد كانت أواصر المودة تنعقد بين أعيان الريف وبين « الخواجات » النازحين إلى بلادنا للاشتغال بالربا ! ربما مر الواحد منهم « بالخواجة » فلوى يده بالسلام باشاً ، فإذا مر بفلاح فقير تجهم وانتفخ وأدبر واستكبر . . .

وهكذا يكون الإسلام فى بلاد الإسلام ! ! .

تشابه نظام الوقف والنظام الشيوعى

تبلغ مساحة الأرض الموقوفة بمصر $\frac{1}{7}$ مساحة المزروع من أرض مصر كلها ، وهذا قدر كبير من الثروة العامة يستحق منا النظر العميق والتفكير الطويل ، ونظام الوقف يعنى إبقاء عين الأرض محبوسة على الجهة المعينة لها إلى قيام الساعة . فلا يمسها تصرف ما ، وتنفق غلتها فى المصارف التى حددت لها ، من نواحى الخير الموجودة أو التى ستوجد ! .

والوقف نوعان خيرى وأهلى :

أما الوقف الخيرى فجائز باتفاق الفقهاء ، وقد أقره الرسول ، ولم ير به

بأساً » فقد أصاب عمر أرضاً بخيبر ، فأتى النبي صلوات الله عليه وسلامه وقال : يا رسول الله : أصبت أرضاً بخيبر ، لم أصب مالا قط أنفس عندى منه ، فكيف تأمرنى به ؟ فقال : إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها . فتصدق بها عمر رضى الله عنه ، أنه لا يباع أصلها ولا يورث . . للفقراء والقربى والرقاب وفى سبيل الله وابن السبيل والضيف . . ثم اتفقوا أنه لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ، ويطعم صديقاً غير متأثل مالا » .

وأما الوقف الأهلى ، فقد رفضه فريق من الفقهاء — فيهم الإمام العظيم أبو حنيفة — بحجة أنه يحبس الأموال عن التداول العام مما يضر بالحالة الاقتصادية . ! وهذا نظر دقيق لا ريب . غير أن كثيرين من الفقهاء أقروه ، ويقوم هذا الوقف على حبس العين بين طبقات من الورثة حتى إذا انقرضوا عادت إلى جهات الخير المعينة لها . وقد غالى الفقهاء بهذا النوع من الوقف حتى جعلوا شرط الواقف كنص الشارع ! ! فجاء من الواقفين من مزق أحكام المواريث الإسلامية ، فأعطى الأبناء وحرم البنات ، والفقهاء ساكتون فى انتظار فناء الجميع ، لتظفر جهات الخير بالتركة المرتقبة ! وينتظر أن يتخلص المسلمون من هذا النوع من الوقف . . .

* * *

والذى يعنينا أن الفقه الإسلامى سمح بأن يحبس أصل الأرض وأن تبذل ثمارها للمستحقين ، وهذا ما توسع الشيوعيون فى تطبيقه وتنفيذه . فأصبحت الأرض عامة لا يمسها هنالك بيع ولا إرث ، وأصبح الشعب كله مستحقاً فيها ! . فهل يا ترى تشبه حال المستحقين هناك حال مستحقى

وزارة الأوقاف هنا ؟ ؟ إن كان الأمر كذلك ، فقد آن الأوان لينفخ فى الصور ! . . وإلا فعلى النظام الشيوعى أن يطلب رد اعتباره من نظام الوقف المصرى الذى يطعم فيه الموظفون ويجوع فيه المتسحقون ! !

وهذه المقارنة لا نرمى بها إلا إلى لفت النظر إلى العاطفة الإنسانية العريقة ، المتغلغلة فى تعاليم هذا الدين نحو الفقراء واليتامى والمتعبين ، مما جعله يؤبد بعض موارد الإحسان على صورة مشت النظم الحديثة فى فكرتها وتصميمها ، وإن خالفتها فى نواح عدة ! ! والعيب عندنا دائما ينبت من سوء الفهم وسوء العمل . وقد تآمر هذا وذاك على إحاطة نظام الوقف بإطار أسود يوحى بالرجعية والفساد والمظالم . . . ويشير إلى أن المستحقين فيه آخر من ينتفع به ! ! .

أحكام المواريث

ومن العوامل الدائبة على تقسيم الملكيات الكبرى وتحطيم كتلتها ، نظام التوريث الإسلامى الذى يجزئ التركة أرباعاً وأثماناً وأثلاثاً وأسداساً . وقد وضع حزب العمال الإنجليزى فى برنامجه الاشتراكى أن يتجه بالمواريث الإنجليزية هذه الوجهة ؛ إذ أن التركات والألقاب هناك من نصيب الابن الأكبر وحده لتبقى الثورات على ضخامتها الأولى ، فتبقى للأسر الأتوقراطية دعامتها المادية التى تعتز بها وتشمخ .

ولكن أغنياء المسلمين لا يميلون إلى الأخذ بأحكام كتابهم فى هذا الموضوع ، فهم يحتالون بإجراءات مصطنعة للفرار منها . فتارة يحرمون البنات ، وتارة يفضلون وارثاً على وارث ، وما أكثر عقود البيع الصورى التى تنجو بها الملكيات الكبرى من هذا التوزيع الواجب . مع أن

الرسول قال : « الإضرار فى الوصية من الكبائر ، ثم تلا قوله تعالى : « تلك حدود الله . ومن يُطِع الله ورسولَه يُدخلْه جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار . ومن يعص الله ورسوله و يتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها . . . » وهذه الحدود المذكورة هى أنصبة المواريث فى : « يُوصيكم اللهُ فى أولادكم للذكر مِثلُ حظ الأنثيَين . . . الخ » .

وروى عن الرسول كذلك : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى حاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار ؛ و إن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة ، فإذا أوصى عدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » .

وهذه الآثار إنما يقصد بها قطع دابر التدخل فى التوريث الإلهى للأهل والأقربين ، على أن نظام التوريث ليس إلا عاملا ثانوياً فى تدعيم الاشتراكية الاجتماعية التى يجب أن تسود ، حتى لا ينقسم البشر المتساوون . إلى سادة وعبيد . أما العامل الأول فهو مراقبة مبدأ الملكية نفسه ، وملاحظة مدى إفادة المجتمع من إطلاقه وتقييده ، و إصدار التشريعات المتصلة بذلك لتعمل عملها الحاسم حين الحياة و بعد الممات ! ! وقص أجنحة الثروات المتزايدة بفرض الضرائب وأخذ الصدقات . و بذلك يحال بين الترفع الأوتوقراطى و بين دعائمه المادية الخبيثة .

موقف الشيوعية من مبدأ الوراثة

والشيوعية ترفض نظام التوارث المشروع عندنا ، بل إنها تحارب مبدأ التوريث نفسه ، ولا تكاد تقره إلا فى توافه المتاع .

وحجتها الأولى والأخيرة أن الميراث قد ينقل أموالا طائلة لمن لا يستحقون

بعملهم شيئاً منها . وذلك ينافى العدالة ، و ينافى مبدأ تكافؤ الفرص ، ثم إن أولاد الأغنياء لهم فى ثرواتهم الموروثة تصرفات أضرت بالمجتمعات وزحمتها بأفانين من العبث والسخف . .

وهذا كلام عليه مسحة من الصدق ، بيد أنه مغشوش لمن فطن إلى جوهره . .

لو كانت المواريث تنقل الأموال فقط من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة لأمكن عدّ ذلك من الأمور التى تقاوم الطبيعة فيها — لو أمكن أن تُقاوم — ولكن الوراثة سنة ثابتة مطردة تنقل مقادير هائلة من الخصائص والصفات المادية والمعنوية ، وتحملها بأمانة عن الموتى المدبرين إلى ذراريهم الناشئين .

وقوانين الوراثة معروفة فى علوم الأحياء والاعتراف بآثارها لامندوحة عنه . والمجتمعات كلها تعترف بالذكاء والنباهة والقوة — وهى بعض ما يورث — وتقدم ذويها — وتحتقر الغباء والبلادة والضعف — وهى بعض ما يورث كذلك — وتؤخر ذويها — ومبدأ تكافؤ الفرص لا يتدخل فى توزيع المواهب على البشر ! .

والمال الموروث من أيسر الشئون التى يستطاع التحكم فيها حتى لا تضار الأمة به . فالإسلام الذى حدد لكل وارث حظه من التركة . وضع من القوانين ما يمنع سوء التصرف فى هذا النصيب الموروث . فسدّ أبواب الحرام فى المجتمع حتى لا يمكن إنفاقه فى حرام ، وقدر مصارف الحلال للفرد . حتى إذا جنح بعدها إلى تبذير ومتلفة أمكن الحجر عليه إلى أن يرشد .

ومن ثم يتضح أن المال الموروث — فى ظل الإسلام — لا يميل ذرة

بموازين العدالة . وأن سبيله سبيل غيره من روافد الوراثة الأخرى . بل لعله أقلها خطراً .

فالزعماء الذين ورثوا الفقر والذكاء تخلصوا من أوزار الفقر ومضوا صعداً إلى القمة

وهناك من ورثوا فى دمائهم جراثيم الدعارة وآلت إليهم ثروات طائلة وملك عريض . .   فما هى إلا أيام حتى ضاعت أملاكهم ثم هووا إلى الحضيض . . !

* * *

على أن الإسلام الذى أقر مبدأ التوارث المالى رفض بشدة مبدأ توارث الزعامات الروحية أو المدنية أو غيرها .

فعندما اختار الله « إبراهيم » عليه الصلاة والسلام نبياً ، طلب منه هذا النبى الكريم أن تنتقل نعمة هذا الاختيار فى بنيه ، فأبى الله عليه ذلك : « وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . قَالَ : إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ : لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ » .

وتعاليم الإسلام تقطع دابر هذا التوريث ولا ترشح للزعامة إلا أولئك الذين يدركونها عن جدارة وكفاية .

غير أن المسلمين لهم فى ذلك تقاليد جنونية فى منتهى السخف ، بل أحسبها نزعة من نزعات الوثنية المخرفة تسرى إلى الأمم فى إبان الضعف والسقم . وليس لأمتنا أى عذر فى هذا الخبط ! .

إن المتصوفة فى بلادنا يتوارثون مشيخة الطريق ! ويكتبون أوراقاً طولها عدة أذرع مملوءة بالأنساب التى تصلهم إلى فلان أو فلان .

وفى مصر جمعية شرعية أسسها جد ، وورثها ابن ، وينتظر رياستها حفيد

وقد كان شيخ الإسلام فى تركيا يلد شيخ الإسلام المرتقب ، والقائد المظفر يلد القائد المظفر .

والشرق الإسلامى ملىء بالأسر التى لا تنتسب إلى آدم أبى البشر المعروف ! فهو مخلوق من تراب ! أما هم فسلالات من عنصر آخر لا يدرى كنهه . لعله النار . . .

وتاريخ هذه الأسر يعرفه — من يطلبه — عند ما تمحص الأسباب الحقيقية لتدهور الإسلام والمسلمين . منذ بدأ طور الانحلال إلى اليوم .

(٥)
مؤسسات الربا والاحتكار والاستغلال

الدين والربا

نصوص الإسلام متضافرة على تحريم الربا ، وعلى عده منكراً اقتصادياً واجتماعياً غليظ الإثم ، ومن الممكن عدّه جريمة سياسية كذلك إذ ثبت أن الغزو الاقتصادى القائم على المعاملات الربوية ، كان التمهيد الفعال للاحتلال العسكرى والتجارى الذى سقطت أكثر دول الشرق فى مخالبه الباطشة ، فقد اقترض الحكام الشرقيون بالربا ، وفتحوا أبواب البلاد للمرابين الأجانب فما هى إلا سنوات معدودة حتى تسربت الثروة من أيدى المواطنين إلى غيرهم وقد مرت أيام عصيبة على الثروة العقارية فى مصر ، كانت فيها مهددة بالضياع لولا تدخل الحكومات آخر الأمر لإنقاذ ما يمكن إنقاذه .

ولتحريم الربا فى الإسلام — بل فى كافة الأديان — علل خلقية واجتماعية جديرة بأن تعرف ، وأن تناقش . فإن الربا عصب الحياة المالية الحاضرة،ودعامة النظم الرأسمالية القائمة . وقد أقصى الدين عن الحياة الاقتصادية لكى تحيا هذه النظم وتبقى ، وعلى الدين أن يختار أحد نهجين إما أن يرضى بموقف الخنوع والاستنكار السلبى ويكتفى بالنصائح الروحية التافهة ! . . وإما أن يصطلح مع النظم التعاونية والاشتراكية الحديثة ويتقدم إلى الميدان بحلول عملية إيجابية .

أما محاولة اللعب بالنصوص ، وتقديم الفتوى الملائمة ، أو الغفلة عن أخطار الرأسمالية القريبة والبعيدة والتجهم للنزعات الاشتراكية الحرة فذاك مالا جدوى منه قط على دين الله ودنيا الناس . ولن يزيد العالم إلا خبالاً ، وسيظل يقوم ويقعد كالذى يتخبطه الشيطان من المس

شبهة سقيمة ...!

سألى رجل قاصر النظر : كيف تقيمون نظاماً إسلامياً يحرم الفائدة الربوية مع أن كيان العالم كله يقوم على الفائدة وتسعيرها وتمويل المشروعات الهائلة على أساسها . . ثم أردف إنكم تخربون ولا تشيدون ! .

وعجبت — فى نفسى — لهذا الأحمق يحبس نفسه فى دائرة ضيقة ، ثم يتساءل : كيف الفكاك منها . كأن العالم إذا أجمع على ترك نظام الزواج جاء من يقول : لا محيص من إباحة الزنا ، وإلا انقطع النسل . فإذا قلت له : إن الزنا حرام ! قال لك : أتريد انقطاع الحياة ؟ .

وأسارع إلى إفهام أولئك المعترضين أن الإسلام ليس وحده الذى يحارب الزنا . . إن طائفة كبيرة من مؤسسى الاشتراكية الحديثة ينبذون نظام الفائدة . ويرى « كارل ماركس » مبتدع الشيوعية أن الربا واحد من مظاهر اللصوصية التى تسلكها الرأسمالية فى سلب حقوق الطبقات العاملة .

ولما كان العمال — فى نظره — هم المنتجين الحقيقيين فإن بخسهم ثمرة جهدهم بسبب إقراضهم أو تسخيرهم يعد جريمة . وسواء كان المستولون على جزء من أجر العمل ملاكا أو مرابين أو منتجين فهم جميعاً آكلون لأموال الناس بالباطل . ومن ثم وجب أن تكون وسائل الإنتاج ملكا للجماعة حتى لا يتحكم فرد فى فرد !!

ونحن نذكر رأى ماركس فى الربا ليعرف الحمقى وأنصاف المتعلمين فى بلادنا أن هناك أنظمة قامت واستوت على أقدامها ، وهى تحتقر الربا وأصحابه فكيف يعجز المسلمون — إذا أخلصوا لدينهم — عن إقامة صرح اقتصادى

لا مكان فيه للربا والمرابين ؟؟ ويكون فى جوهره ومظهره إسلامياً بحتاً ؟؟
ثم إن الربا حرام فى كل دين . وليس فى الإسلام وحده .

كان القانون الرومانى يبيح القرض بفائدة ، فجاءت الكنيسة الكاثوليكية وحرمته تحريماً صارماً ، إذ جاءت التوراة والإنجيل على السواء بتحريمه . لذلك قال الكنسيون بتحريم المطالبة بفائدة عن النقود لدى إقراضها ، فروح الأخوة التى هى أساس تعليم المسيح كانت من دعائم هذا التحريم .

ثم نقل فقهاء القانون الفرنسى القديم هذا التحريم ، وعللوه بسبب منطقى ، اقتبسوه عن أرسطو ، هو أن النقود لا تلد نقوداً ، فتكون المطالبة بفائدة عن النقود ضد طبيعة الأشياء .

ويقول علماء التشريع الحديث بعد هذا : إن أثر ما تقدم على القانون يبدو فى تحديد سعر الفائدة ! ! .

والذى أعرفه أن اليهود لا يستبيحون التعامل بالربا إلا مع من لا يدين باليهودية ، إذ أن الربا عندهم محرم تحريماً باتاً بنص التوراة . . وقد نعى القرآن عليهم تناقضهم مع دينهم فى معاملة الأجانب واستباحة مالهم . أما الدكتور شفيق شحاته أستاذ القانون المدنى بكلية الحقوق فى كتابه « تاريخ القانون الخاص فى مصر » فقد استعرض القانون المصرى من عهد الأسرة الثالثة الفرعونية من سنة ٢٩٨٠ قبل الميلاد إلى سنة ٦٦٣ ق . م ثم قال : إن القرض بفائدة لم يعرف فى مصر إلا فى عهد الانحطاط الثانى الذى حدث فى الفترة الواقعة بين ١٢٠٠ — ٦٦٣ ق . م . وهو ينقل رأى العالم الكبير ريفييو : [إن المصريين كانوا لا يتعاملون بالربا أبداً ، فالتعامل

بالربا كان مقصوراً على الأجانب] . وهو يرى أن فكرة الفائدة دخلت القانون المصرى فى عهد الإقطاع الثانى المتقدم ذكره ، منقولة عن الكلدان .

ويهمنا أن نعلم أن النظام القانونى فى مصر القديمة كان — إبان ازدهاره — فى منزلة من السمو دونها كثير من النظم القانونية المعاصرة ، ومما يستحق العناية أن المصريين القدماء عرفوا مختلف النظم التى يريد العالم أن يجربها الآن ، فقد سادت عندهم نظم المذهب الفردى ، والإقطاعى ، والاشتراكى ، وغير ذلك من النظم . ولم يعرفوا خلال هذه المراحل المختلفة التعامل بالفائدة ، حتى قيل إنها دست على القانون المصرى فى أواخر أيام الأسر الفرعونية المغلوبة على أمرها ! وذلك بعد أن نكست الأوضاع ، وأظلمت الأفكار ، وانحطت الأخلاق ، وأراد الله لدولة العز أن تزول ! ولقرى أمر فاسقوها أن تدمر ! .

حكمة تحريم الربا

يسعى الدين من وراء تحريم الربا إلى أمرين خطيرين : أولهما عدم استغلال الأزمات والضوائق الطارئة وبيع المساعدات فيها بأجر غال أو زهيد فإن تغليب العاطفة الإنسانية واجب ، ووظيفة المجتمع أن يحمى أبناءه شرور الحاجة ، وأن يكفل ضروراتهم الطارئة والملازمة . . والأمر الثانى ألا يوجد أفراد يأكلون من غير عمل ، ويربحون من غير كفاح ، فإن سرقة جهود العاملين باسم ما قدم إليهم من مال لا تجوز ، وقد أسلفنا القول فى ضرورة جعل العمل أساس الدخل والامتياز والتفوق . ولا مانع — شرعاً — من مصادرة التصرفات المالية التى تخالف هذا المبدأ ، والتى قد يتذرع بها إلى إقرار الربا وإشاعته .

وظاهر أن كلا الأمرين لا يتحقق إلا فى جو اشتراكى صحيح ، أما ترك

المعوزين فريسة سهلة للمرابين ، وترك أصحاب الكفايات التجارية ألعوبة فى أيدى أصحاب الأموال المدخرة ، فهذا حرام . والإسلام يرسم صورة دامية للاستغلال الربوى الشائن ، ويوضح فيها كيف يعيش بعض الناس على كد غيرهم ونشاطه كما تعيش الديدان الطفيلية على غذاء الأجسام الكادحة .

وكيف يزدردون سهلا ليناً ما احترق غيرهم فى جمعه وتحصيله ! ثم يبين الجزاء المعد لهم يوم القيامة فيقول النبى صلوات الله عليه وسلامه : «رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخرجانى إلى أرض مقدسة ، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم ، وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة ، فأقبل الرجل الذى فى النهر ، فإذا أراد أن يخرج رماه الرجل — الذى على الشط — بحجر فى فمه فرده حيث كان ! فجعل كلما أراد أن يخرج رمى فى فمه بحجر فيرجع كما كان ! فقلت ما هذا الذى رأيته فى النهر ؟ قال آكل الربا » .

أنهار من دماء وقذائف من حجارة ، وقمع موصول القسوة والإصرار ، وحرب من الله ورسوله بدأت فى الدنيا ولم تؤذن بنهايته ، فلم أعد هذا كله ؟ إن هذا اللون من التعذيب يرمز إلى أحوال مصاصى الدماء من المرابين الذين يرجمون المجتمع بفضل ثرواتهم ، فيتركون الحياة فيه جحيما لا تطاق !

فهل من عيب على المجتمعات البشرية إذا هى أعادت تنظيم كيانها الاقتصادى من جديد بعيداً عن رءوس الأموال التى لا تعمل إلا بالفائدة ؟ إن الإسلام يرى — على لسان نبيه — أن : « درهم ربا يأكله الإنسان ، وهو يعلم ، أشد من ست وثلاثين زنية » ! ! فهل يعنى ذلك إلا أن المجتمع الدين يجب أن يحيط معاملاته المالية بسياج يمنع هذا الوباء . وأن يقبل كافة صور الاستثمار والاستغلال الاقتصادى التى تبعده عن الربا قليله وكثيره

وأن يدرس ببصر مفتوح الوسائل الحديثة التى يتبعها الاشتراكيون فى الزراعة والصناعة والتجارة وسائر ضروب الإنتاج .

الشركات الكبرى

ليس هناك مانع شرعاً ولا عقلاً — من أن يشترك عدة أفراد فى إدارة عمل ما ، لكى ينتفعوا به وينفعوا الأمة منه . وقد أقر الإسلام نظام الشركة وفصل الأحكام المتعلقة به فى صوره المحدودة الأولى . وأوجب أن يكون الشركاء أمناء : « أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه فإذا خان خرجت من بينهما وجاء الشيطان » ولا ريب أن خيانة الشركاء لأنفسهم هى دون خيانتهم لجمهور الشعب ؛ وتآمرهم جميعاً على اغتيال حقوقه الكثيرة أعظم جرماً من تغفل بعضهم للبعض الآخر . فإذا تأسست الشركات وهدفها الأكبر هذه الخيانات الشعبية فهى شركات شيطانية يجب غل أيديها عن العمل، وضبط تصرفاتها فى الحدود السليمة المعقولة .

وقد تضخمت الشركات فى النظم الرأسمالية حتى لتضارع ميزانيتها ميزانية بعض الدول الكبيرة . وما كان هذا ليعتبر مثار شكاية ولا موضع مؤاخذة لو أن الأمور جرت مع هذه الشركات فى أوضاعها النزيهة ، لكن هذه الشركات تمثل — من وجهة النظر الإسلامية — مجموعة آثام اقتصادية شائنة فهى تقوم غالباً على أساس الاحتكار ، والتحكم فى الأسعار ، وحرية تحديد أجور العمال ، وجعل الربا صبغة ثابتة لمعاملاتها المالية العديدة . وقد ضاق العالم ذرعاً بهذه الشركات ، ونبتت فى أقطار شتى نظم جديدة للاستغلال الاقتصادى الذى يقى الناس شرور هذا الاتجاه الرأسمالى وما فيه من افتيات واضح على مصالح الشعوب وحقوق الطوائف العاملة .

وتباينت النظم الجديدة فى تقديرها لصالح العام ، وتحديدها للطرق المنتهية إليه ، وأبرز ما فى الحياة الغربية الآن « اشتراكية الدولة » و « اشتراكية رأس المال » وهى التى يقوم عليها النظام الشيوعى فى روسيا ، إذ يمتاز هذا النظام (بأن الدولة تملك الصناعة وتتولى إدارتها جميعاً ، فالأرض والمصانع والسكك الحديدية والسفن وخطوط الطيران والمتاجر والمصارف . مثلها هناك كمثل الشوارع والطرق الزراعية عندنا ليست ملكا خاصاً لأفراد أو شركات، بل ملك للمجتمع كله . ويديرها موظفون تعينهم الحكومة وتجرى عليهم الأرزاق وتسألهم عن تصرفاتهم) وليس هناك سبيل إلى إحراز المال إلا من العمل فى مصدر من مصادر الثروة المعروفة . والمادة الأولى من الدستور السوفيتى تنص على أن الاتحاد الجمهورى (هو دولة اشتراكية من العمال والفلاحين) .

ويبيح القانون الروسى — إلى جانب النظام الاشتراكى السائد — أن يقوم أفراد من الفلاحين ورجال الصناعات اليدوية بأعمال خاصة ضيقة النطاق تعتمد على مجهودهم الشخصى على شريطة ألا يستغلوا فيها مجهوداً لغيرهم .

أما اشتراكية الدولة فنظام اقتصادى وسط ، طبق بأشكال مختلفة فى ألمانيا وإيطاليا على عهود النازى والفاشيست ، ويطبق الآن فى انجلترا وغيرها مع مع تعديلات موضعية لا تغض من الأساس الحقيقى له ، والقاضى بإشراف الدولة على المصالح والشركات الكبرى . إشرافاً مباشراً ، ودخولها فى رأس المال بأسهم تزيد على النصف ، وتحكمها فى أنواع الإنتاج ووسائله ، وتوزيعها للأرباح على الأيدى العاملة توزيعاً ينتفى به الجور والحقد ، وتتقارب به مستويات المعيشة بين الرؤساء والمرءوسين .

* * *

وهذا المنهج الاقتصادى وسط كما ترى بين تعطيل مبدإ الملكية وبين

إطلاقه . والناس — من الناحية الدينية — أحرار فى اختيار الأسلوب الذى ينظمون به دنياهم ما دام هذا الأسلوب لا ينطوى على كهوف خفية للمآسى التى تؤثر فى معنوياتهم ، والتى تشكل حياتهم تشكيلا كله أغلاط وانحطاط . وقد بين الإسلام الجرائم الاقتصادية التى يحاربها فذكر فى عدادها الربا والاحتكار والاغتصاب . وهذه المآثم تعتبر المعالم الأولى للنظام الرأسمالى الطليق فكيف يبقى ويبقى معه الإسلام ؟

إذا حرمنا نباح الكلاب وعواء الذئاب فالطريقة المثلى للتنفيذ أن تعدم الكلاب والذئاب ؛ لأنها ما دامت حية فستنبح وتعوى . والنظم التى نبحت الإنسانية ، وقطعت طريقها ، وأنشبت فيها أظافرها وأنيابها ، هى هذه النظم المحتكرة للأقوات والمصالح ، المحتقرة للشعوب ، والطبقات العاملة ، المتسلطة بالجبروت على المال تعبث به وتملأ به الأرض فساداً . وعندما يصدر الحكم بإعدامها يكون الناس قد استجابوا حقاً لرأى الدين ونزلوا على رسالاته العادلة .

حياة تعاونية أو حياة ربوية

لم يذكر القرآن آية فيها ترهيب عن الربا إلا ذكر معها كلاماً يُرغب فى المعاونة الصادقة والمساعدة الواضحة لمن يحتاجونها ، تارة باسم الزكاة ، وتارة باسم الصدقات ، وتارة باسم الإنفاق العام فى السراء والضراء جميعاً ، « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ ، وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ » . « يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ » . « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ » . « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فى السَّرَّاء وَالضَّرَّاء » .

والمفروض أن عقلية الشعوب عندما تسمع ذلك لا تقف فى تطبيق الآيات عند محاربة الصور الجزئية للربا أو مصادرة أحواله العارضة . وإلا كانت عقلية بدائية صغيرة بل الواجب أن يدور دولاب العمل ، وأن توضع له قوانين الحركة ، بحيث لا تكون هناك حاجة ما إلى التفكير فى نظام الفائدة الربوية ، ومن ثم فتمويل المشروعات العامة والأعمال الكبرى ينبغى أن يتم عن طريق التعاون الشعبىّ الذى لا يسمح فيه بإدخال العناصر غير العاملة ، وإن ملكت المال — ما دامت لا تعيش إلا على الابتزاز والسلب — على أن يحمى العمال والمستهلكون من وساطات السمسرة والاحتيال ، ويسترشد فى هذا الشأن بقوانين الجماعات التعاونية الناجحة فى مختلف البلاد والأنظمة الأخرى . أما الأعمال الفردية فتوفر لها سبل القرض الحسن ، أو ليس هذا كان أبقى على كياننا من تصرفات تنتهى بإنشاء صندوق الدين ؟ فتدفع الحكومة الربا بدل أن تدفع غوائله عن الناس .

تقسيمات للربا

قسم فريق من الاقتصاديين الربا إلى قسمين : ربا استهلاك ، وربا إنتاج ، ويقصد بالأول القروض التى تأخذ لتستهلك فى النواحى الإنسانية البحتة من أطعمة وأدوية ونفقات مدرسية وشبهها ، وأخذ فائدة عن أمثال هذه الديون خسة وصغار ، ولذلك فهم يحرمونها — لأسباب خلقية — أما النوع الثانى وهو ربا الإنتاج فهو عن الديون التى تؤخذ للأغراض التجارية المحضة ، ويرون أن الفائدة — فى حدود نسبة معينة — لا مانع من إقرارها ، وهذا التقسيم ليس إلا محاولة لتخفيف آثار الربا وتغطية مصائبه، ومدًّا لأجل الأنظمة الرأسمالية البالية ، وغضًّا عن أوزارها التى ناءت بها الشعوب .

وهذا الكلام خطأ من الناحية الدينية والناحية المدنية معاً ، فإن الإسلام حرم الربا فى القروض كلها ، ما كان منها للاستهلاك ، وما كان منها للتجارة « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا » ثم حرمه بنسبه كلها فاحشة كانت الفائدة أم خفيفة « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا » « فَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ » فكل ما زاد على رأس المال يعتبر أخذه ظلماً . وما يحتجون به من قول القرآن الكريم « لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً » لا أصل له ، فإن قيد الأضعاف هنا كقيد الإحصان فى قول القرآن : « لَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً » وانتفاء القيد فى الآيتين لا يبيح الربا فى الآية الأولى كما لا يبيح الزنا فى الآية الثانية .

ذاك من الناحية الدينية ، أما من الناحية المدنية فلدينا من الأسباب ما يجعلنا لا نغفل فى ربا الإنتاج الجوانب الإنسانية التى لاحظناها فى ربا الاستهلاك ، بل هناك ظروف حيوية تجعلنا نحرم الربا بنوعيه فى شتى القروض. فإن التاجر الذى يقترض ليعمل إنما ينفق كسبه فى الغذاء والكساء والدواء وما إلى ذلك فلم يباح الربا فى قرضه ؟ على أن الأمر الذى يستحق الذكر والاعتراض القروض التى تطرحها الشركات فى الأسواق المالية سندات محددة الفائدة ، فإن هذه السندات تضاعف رأس مال الشركة وتخفف الأرباح التى توزعها على حملة السندات ، وتنمى الإيرادات الأصلية ، مع العلم بأن أكثر الشركات المساهمة صورية ، يلتهم أغلب أسهمها وأطيب ثمراتها أفراد لا يتجاوزون عد الأصابع ويتناول فتات المائدة بعدهم جمهور الموظفين والعمال ، وبذلك يعمل الربا على ترجيح كفة الطبقة المالكة . ويخس الطبقة العاملة ، وهو ما لا وجود له قط فى النظام التعاونى الذى طالبنا به آنفاً باسم الدين .

وباء ..!

أينما رميت ببصرك فى جوانب الحياة الداكنة التى نعيش فيها ، رأيت شبح الربا ماثلا أمامك . لم يترك عملا اقتصادياً إلا دس فيه أصابعه الصفراء ، فالأغنياء يودعون أموالهم فى المصارف بالربا ، والمصارف تمنح التجار مساعداتها المالية بالربا ، والشركات تطرح أسهمها وسنداتها بالربا ، والحكومة تعقد القروض الوطنية بالربا ، وتقبل وفور الأفراد بالربا ، وتحكم قوانينها على المدينين بسداد الربا ، وشركات التأمين تبذل عونها فى الكوارث المفاجئة على أساس الربا .. وهكذا صح ما يروى عن الرسول « ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد إلا أكل الربا ، فمن لم يأكله أصابه من غباره » والشبكة الربوية العديدة الفروع الطويلة الخيوط المعقدة الاتجاهات المنتشرة فى الحياة العامة انتشار الشرايين فى الجسم يجب أن ندرك لها خطورتها ، فإن انقاذ الأمة منها ليس بالأمر الهين . وهذه الآلة الدائرة قد وكل إليها كياننا المالى كله ، ونحن لا نريد تغيير جزء فاسد منها « بقطعة غيار سليمة » فهى للأسف متماسكة الأجزاء ، متشابكة الحركة ، فلابد من تحطيمها كلها ووضع نظامنا المالى على دعائم أخرى ، تكفل له على عجل حياته وازدهاره ، وتصون حاضره ومستقبله .

إن التأمل القليل ، والتفكير القريب ، يكشفان عن وجه الحقيقة فى هذه المشكلة ، وسنرى عندما نبحث ، أن الفساد الخلقى والاجتماعى ، وجفاف المعانى الإنسانية من الحياة العامة ، ونية الاستغلال والاغتيال عند العاطلين المكتنزين ، وقلة الفرص السانحة أمام العاملين المجتهدين ، وانعدام العون أو ضآلته لمن يصابون بالنوازل الفادحة ، هذا كله هو العامل المباشر لوجود الربا . فهو فى الحقيقة مرض الرأسمالية المشربة بالأنانية الحادة والمنافع الشخصية

الجارفة . أما حيث يوجد التكافل الاجتماعى والنظام التعاونى ونضيق الحيل فى وجوه الجشعين والمستغلين فلا محل لظهور الربا والمرابين ، وذاك ما تعمل له دائماً السياسة الاشتراكية الحريصة على مصلحة الجمهور ، وعلى سوق أفراده جميعاً إلى ساحات الكفاح والجد .

من الذى يغلق أبواب الإسلام دون قبول هذه الأفكار الطيبة والآراء المعقوله ؟ أهم رجال الدين ؟ لا . فما يقبل أهل الدين حياة تغيم صفحتها بسواد كثيف من غبار الربا ! أهم أبناء الشعب ؟ لا . فما يقبل جمهور الشعب أن ينغص عيشه بكلَب أصحاب المال وهم يضيقون عليه الخناق ويسدون أمامه المذاهب ، إنهم نفر قليل من عباد العجل الذهبى ومقدمى القرابين الشعبية على مذبحه ، ولهذا النفر الشقى يجب أن يقال : « انْظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ، لَنُحَرِّقَنَّهُ ، ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ، إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا » .

شركات التامين . . .

الدلائل منعقدة على أن المعاملات المالية السائدةأصبحت لا تعتمد إلا على الطرق الآلية المجردة ، فى إنقاذ المنكوب وإسعاف المحرج ، ويبدو أنها نفضت يديها تماماً بل لعلها تسخر — من فكرة انتظار العون والإنقاذ من جهات البر والخير ، وما الداعى لهذا الهوان ؟ إن التاجر يخرج مبلغاً محدوداً يحتسبه من نفقاته المستهلكة ، ويؤمن به على موارد رزقه ، فإذا فجأته كارثة وصل إليه العوض السريع وهو مطمئن النفس مرفوع الجبهة ، وذاك أجدى على حياته وأصون لكرامته من انتظار الصدقات التى قد تأتى أو لا تأتى على حسب أريحية المتطوعين والمتبرعين ! ! ومن ثم أصبحت فكرة التأمين

عالمية ، تستمسك بها دول شتى ، وتقوم لها شركات هائلة ، وقد جعلت حكومتنا التأمين إجبارياً على كثير من الأشخاص والمرافق ، والدعايات النشطة دائبة على توسيع دائرته فى كل ناحية .

ونظام التأمين يقوم فى جوهره على أعمال ربوية محرمة ، والضرورات التى أوحت به هى الضرورات التى أوحت بإقامة حفلات الرقص لإعانة مشروعات الخير ، أى هى خراب المجتمع من العاطفة الإنسانية النبيلة التى تندفع إلى الإحسان من تلقاء نفسها ، وفقدان الأنظمة الدينية والخلقية أو بعبارة أصرح ؛ فقدان الأنظمة التعاونية والاشتراكية التى تضع منهاجاً دقيقاً شاملا لعلاج الطوارىء الفاجعة ، والتى تمد رواق التأمين الاجتماعى على حاضر الناس ومستقبلهم فلا يتوجسون فى أنفسهم ريبة ، والتى تفترض الرحمة قارّة فى القلوب — فإن لم تكن مستقرة بها غرستها غرساً — ثم سنت من التشريعات المالية الصحيحة ، ما يجعل المجتمع كله يضطرب إذا أصيب أحد أفراده بسوء حتى يندفع عنه ! ! مصداق قول الرسول صلوات الله عليه وسلامه « مثل المسلمين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ورأى الإسلام فى هذا أن « الضعيف أمير الركب » . . يعنى أن القافلة الحافلة بالأقوياء والأصحاء تكيف مسيرها ونزولها بما لا يجشم الضعيف مشقة ولا يكلفه عنتاً ، وأن المجتمع إذا بلى بعاجز توفرت القوى على خدمته وإعانته ، بل على تكريمه ومواساته وقد لُقِّنت الأمة الإسلامية درس الرفق بالضعفاء عندما فُهِّمت أنها لا يمهد لها فى الأرض إلا إذا مهدت حياة الراحة لمن يضعفون فيها وأمّنت معايشهم ، وفى ذلك يقول الرسول « إنما ينصر الله هذه الأمة بضعفائها » .

سيقول السفهاء من الناس : إن تحقيق هذا خيال ، وكذبوا . فلو أن

الجهود التى بذلت فى نشر التأمين الربوى بذل مثلها فى إقرار التأمين الاجتماعى لتغيرت الحال و بدلت الأرض غير الأرض . وقد لجأت الحكومة إلى التأمين على بعض العمال و بعض المرافق لدى شركات الربا ، فهل أعيت الحكومة الحلول الصحيحة حتى لجأت إلى هذا الحل المريب ، أم هو الفرار المخجل من مبادىء الاشتراكية ونظرياتها الصائبة فى علاج المشاكل ، ولما كان بعض علماء الدين قد خدع عن حقيقة نظام التأمين فأفتى بإباحته إذ عرضت عليه بعض صوره عرضاً سليما بل مغرياً ، فلزم أن نصحح الحكم المشروع وأن نكشف حقيقة الموضوع .

أساس الفتوى . . .

الذين يقولون بإباحة هذا النوع من المعاملات بين الأفراد والشركات يعتمدون على أنه فكرة تعاونية سليمة لا ضرر فيها على أحد ، بل فيها ضمان لمستقبل بعض الناس يؤخذ من أرباح الجماعة المتعاونة ، ومما تدخره من مالها لمستقبلها المجهول .

ولكى تعرف خبيئة هذا الكلام نبين لك معنى التعاون الصحيح ، الذى يقره الإسلام بل يرغب فيه ويدعو إليه ، وسترى هل التأمين تعاون اجتماعى سليم أم استغلال اقتصادى بحت ينبغى أن يخضع لنظام المعاملات التى قال الشارع فيها حكمه ، وأوضح فيها رأيه .

إنه لكى يكون هناك تعاون سليم بين أية جماعة لتساعد أحد أفرادها إذا نزل به مكروه ، يشترط فيما يجمع من مال لتحقيق هذه الغاية أمور :

١ — أن يدفع الفرد النصيب المفروض عليه فى ماله على وجه التبرع قياماً بحق الأخوة ، ومن هذا المال المجموع تؤخذ المساعدات المطلوبة للمحتاجين .

٢ — إذا أريد استغلال هذا المال المدخر فبالوسائل المشروعة وحدها .

٣ — لا يجوز لفرد أن يتبرع لشيء ما على أساس أن يعوض بمبلغ معين إذا حل به حادث ، ولكن يعطى من مال الجماعة بقدر ما يعوض خسارته أو بعضها على حسب ما تسمح به حال الجماعة .

٤ — التبرع هبة . والرجوع فيها حرام ، فإذا حدث فليراع حكم الشرع فى ذلك ، ونحن نلاحظ فى المعاملة السائدة بين شركات التأمين وعملائها أن كلمة التعاون هنا مزيفة ، يذكر كما يذكر التاجر لزبائنه كلمة التضحية فيما يبيعه لهم من سلع ، والأمر لا يزيد عن كونه محاولة للربح ، ومتاجرة بالكلمات واستغلالا لتهيُّب الناس من غدهم المبهم ، ونلاحظ على هذه المعاملات مآخذ خطيرة :

١ — فما يدفعه الشخص للشركة : إن أخذه بعد مضى المدة المنصوص عليها فى العقد أخذه مضافاً إليه ربح هو ربا لا شك ، وإن لم تمض المدة بل أراد فسخ العقد انتقص منه نصف ما يدفعه تقريباً وهذا لا يجوز .

٢ — المبلغ الذى يؤخذ حال الوفاة أو الإصابة ليست له صورة مقبولة فقهاً فى المعاملات الإسلامية ، بل هو استيلاء على أموال الغير . وليس العميل هنا شريكا فى الربح والخسارة حتى يقتطع من أرباح الشركة هذا المبلغ إن احتاج إليه ، وليس غيره من العملاء المؤمنين متبرعاً بما يدفع حتى يسوغ أخذ مالهم .

٣ — هذه الشركات مقطوع بأنها توظف كثيراً من أموالها فى أعمال ربوية صريحة .

٤ — الخير الذى يصيب بعض الطوائف الفقيرة من هذه الشركات

قريب من الخير الناشىء عن مشروعات اليانصيب وأشباهها ، والواجب تغليب روح التدّين وتمحيض الخير لأربابه ابتغاء وجه الله .

٥ — التأمين بهذا المعنى ذريعة لجرائم احتيال كثيرة ، ترتكب لاقتناص المبالغ الكبيرة المرصودة للحوادث المفاجئة .

ماذا نصنع . . ؟

موقف الدين تجاه الأزمات المعارضة يقوم على عملين كريمين ، يطلب أولاً إلى الرجل المحزون ألا يفقد رباطة جأشه ، وألا تقفه العقبات الطارئة عن مواصلة سيره ، فإن كانت لديه طاقة شخصية على استئناف نشاطه مضى معتمداً على ربه ، واثقاً من نفسه ، موقناً بنجاحه ، واضعاً نصب عينه قول رسول الله : « من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقته ، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله يوشك الله له برزق عاجل أو آجل » وهذا التوجيه الرشيد من أهم مبررات التوفيق للأشخاص الذين تهبط قواهم المعنوية إثر ماينتابهم من آلام ثقال ! والعمل الآخر يناط بالمجتمع نفسه ، إذ أنه مسئول عن سلامة أعضائه ، فإن إماطة الأذى عن الطريق — حتى لا يصاب أحد بسوء — بعض تعاليم الإسلام ، وقد قرر الفقهاء أن هناك واجباً عينياً فى مال الفرد ، وواجباً كفائياً فى مال الجماعة ، يرصدان كلاهما لتلافى العيلة ومحاربة النوائب . والأمة المؤمنة العادلة هى التى تمشى فى ضياء من إيمان بنيها وعدالة نظمها ، فلا يهون فيها رجل ، ولا تظلم فيها كفاية ، ولا يغبم فيها مستقبل ، ومثل هذه الأمة هى التى تحظى بأقساط وافرة من التأمين الشامل لكل صغير أو كبير من رجالها ، وكل دقيق أو جليل من شئونها « الَّذِينَ آمَنُوا — وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ — أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » أما تجفيف

الأفئدة من حنان الإيمان ، وتجفيف المجتمع من تراحم الطبقات ، وتجفيف القوانين من حسن الكفالة ودقة الرقابة وانتظار المعونة الآثمة من بنود الربا الحرام وشركات الاستغلال الجشعة ؛ فتلك حماقة كبرى لن تعقب إلا حرب الغل بين الطبقات ، وحرب المطامع فى أنحاء الأرض والسموات .

الاحتكار . . . !

خلق الله هذه الأرض مباركة التربة موفورة الخيرات وقدر لها أقواتها ، وأودع فيها أرزاقها وهيأ لمن فيها رغد الحياة عليها ، ودبر لكل نسمة عوامل طمأنينتها، ثم ساقها إليها وهو يعلم مستقرها ومستودعها ، فالناس جميعاً يستطيعون العيش الرخىّ ، ويقدرون على أخذ أنصبتهم اللازمة لهم من موارد الحياة الدافقة أبداً ، والتى لا تغيض قط كما يأخذون أنصبتهم من الماء والهواء والضياء سواء بسواء ، ولكن الدنيا بليت بأقوام اعترضوا مجرى الحياة المعتاد فعاقوه عن مضيه وحبسوه عن انطلاقه ، كما تعترض الجنادل الصلدة مسايل الأنهار الكبرى ، فتحجز الماء وراءها لججاً صاخبة وتترك أمامها بقاعاً جرداء ترتقب الرى فلا يصلها ، وتتطلع إلى الخير فلا يأتيها ! ! .

ذلك عمل المحتكرين فى العالم ، وأثر قلوبهم الخربة وأيديهم الملوثة ، يتلقفون السحب الهامية فيبيعونها للناس قطرة قطرة بالسعر الذى يشاءون ، ويستولون على مناكب الأرض ثم يوزعونها على الشعوب ذرة ذرة كما يشتهون!!

وقد حرم الإسلام الاحتكار ، فإن المحتكر مناع للخير معتد أثيم وهو مضيِّق لفضل الله على الناس ، يقول الله له يوم القيامة : « اليوم أمنعك فضلى ، كما منعت فضل ما لم تعمل يداك » وهو مسخّر لإشقاء الجماهير وتعريض حياتهم لمظان التلف ، وهل أدل على ذلك من أن وباء « الكوليرا »

لما انتشر أخيراً ونشر بعض الأطباء أسماء العقاقير التي تقي منه ، اختفت هذه العقاقير من محالها على عجل — وكانت قبلا مبعثرة في السوق — ليتحكم تجار الموت والحياة من اليهود المحتكرين في طريقة بيعها وتقدير ثمنها !

وقد اختار النبي صلوات الله عليه وسلامه لهؤلاء الصفة التي اختارها القرآن لدمغ جبابرة الأرض بالخزي والهوان فقال فيهم : « لا يحتكر إلا خاطىء » كما قال القرآن في وصف الجبارين من مستعبدي الشعوب « إِنَّ فِرْعَونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِين » ثم بين موقف الدين منهم وموقفهم من الدين فقال : «من احتكر طعاماً — أربعين يوماً — فقد بريء من الله وبريء الله منه » !! بلى . وإنه لمن الخير للإنسانية أن تستأصل — كعناصر ضارة — هذه الطوائف التي لا تبني راحتها النفسية إلا على حساب الانتقاص من راحة الناس ، ولا تبني سعادتها الشخصية إلا على الاختلاس اللئيم لحقوق النـاس ، ونحن نرى القرآن يعتبر الأعمال الناشئة عن الأنانية الخبيثة فجوراً ، وإن كان مظهرها هيناً كالتطفيف في الـكيل والوزن الذي يجعل صاحبه يحب أن يأخذ كثيراً وأن يعطي قليلا « وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ! يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ كَلَّا . إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّين » فـكيف بهؤلاء المحتكرين الذين يريدون أن يأخذوا من الشعوب كل شيء ، ولا يودون أن تأخذ الشعوب منهم شيئاً قط ؟؟ .

وإذا كانت تلك غضبة الإسلام العارمة لحبة تغتال من كفة ميزان أو من جوف مكيال . . فـكم يكون غضبه قاسياً وعقابه حاسماً لحقوق شعوب بأسرها تغتال ، وخيرات أقطار واسعة تحتكرها حفنة رجال

الشركات المحتكرة . . .

تستولى هــذه الشركات على مصادر الإنتاج ، وعلى المرافق العامة ، وتتولى معاملة المستهلـكين بطرائقها الخاصة فتظلم المنتجين والمستهلـكين جميعاً، إذ تشترى السلع من الأولين بأسعار زهيدة ، وتبيعها للآخرين بأثمان فاحشة ، وبهذا تصل أرباحها إلى حدود تتجاوز الحقائق إلى الأحلام ! وتبرز مساوىء هذا النظام على أقبح وجوهها فى البلاد المستعمرة سـياسياً أو اقتصادياً . فزراع القصب فقراء ؛ وشركات السكر والـكحول متخمة الخزائن ، وزراع القطن يرتدون الأسمال ، وشركات الغزل والنسيج تخب فى الحرير ، ومياه النيل تذهب هدراً فى جوف البحر وتباع مكررة لسكان المدن بمـا جعل أرباح شركاتها تزيد أضعافاً مضاعفة على رأس المـال ، ومن هذا القبيل شركات البترول والنقل وسائر المؤسسات الاحتكارية .

ولا ريب أن هذه الشركات تؤدى أعمالاً عامة نافعة ، وتستخدم كفايات ذكية ، وقوى كثيرة . ولـكن هل هذه هى الطريق الفذة لخدمة الأمم ونفع الجماهير ؟ كلا . لقد جاء النظام الشيوعى — بأساليبه الغالية فى معالجة الأمور — فمحا كافة الوساطات بين المنتج والمستهلك ، ووضع أصابع الحـكومة على منابع الإنتاج الزراعى والصناعى ، وتولى وحده معاملة المستهلك وحمايته من هذه الشركات المحتكرة ! .

ورأت الاشتراكية أن الضرورات لا تحتم هذا المسلك فاستولت على المرافق العامة « وأممتها » وسنت من التشريعات ما رأته كفيلا بإنقاذ المنتج والمستهلك من براثن الاحتكار . ونحن إذا رجعنا للسوابق الإسلامية فى هذا الشأن وجدنا أن الإسلام يعلن حرباً شعواء على شركات الاحتكار كما رأينا

بل ينص على أن هناك مواد معينة لا يجوز أن يتملك حق التصرف فيها الأفراد ! ويظهر أن البيئة البدائية التى كان يعيش فيها العرب هى التى حددت هذه المواد وإلا فلا وجه لتحديدها على الدوام . روى عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله : ما الشىء الذى لا يحل منعه ؟ قال : « الماء والملح والنار » كما روى كذلك : « إن المسلمين شركاء فى ثلاثة الماء والنار والكلأ » حتى روى أن ثمنها حرام !! والمهم أن هناك أشياء كثيرة يجب أن تبقى شعبية، وأن يكون تدخل الحكومة فيها لتنظيم توزيعها فقط ، ومن المفيد أن نعرف أن التيار الكهربائى يوزع بالمجان فى بعض بلاد أمريكا !! كما كان يوزع الكلأ فى صحراء الجزيرة قديماً .

هل الاحتكار يدخل فى نطاق التجارة الحرة ؟

على أن هذه المواد غير المحدودة التى يرى الدين مبدأ إشاعتها أو التى يبيعها على الناس بما لا يزيد عن تكاليف إنتاجها لأن الحاجة العامة ماسة إليها كما اعترفت روسيا وأمريكا عملياً بذلك — هذه المواد ليست كل شىء فى نواحى الحياة الشعبية . فثمة غيرها أشياء يصح أن تكون موضعاً للتبادل التجارى وأن يباشر العمل فيها أفراد أو شركات ، لكن تدخل الحكومة فى تحديد الأرباح والأسعار يبدو أمراً محتوماً فى أوقات الحرب والسلم معاً ، ولا عبرة بما يقال من ترك ذلك للتنافس الحر ، فما أيسر تكاتف أولئك المحتكرين على التحكم فى السوق تكاتفاً شائناً لا وزن معه لمصلحة الجمهور ! ولقد لدغت أكثر الشعوب من هذا الجحر فأصبحت تحاذر لأن من فتح بابه والتعرض لعذابه . والإسلام يقرر أن محاولة إغلاء الأسعار على المسلمين جريمة

منكرة وجاء فى حديث النبى صلوات الله عليه وسلامه : « من دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم كان حقاً على الله تبارك وتعالى أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة » .

فلا حرم أن على الدولة عبء الرقابة اليقظة والتوجيه النافذ فى النشاط الاقتصادى كله لتدفع الأمور دفعاً إلى طريق السماحة والتيسير . وإلا فإن إصرار المحتكرين على موقفهم النابى سيمهد الطريق للعالم أن يأخذ بنظرية « الشيوعية » فى منع كل واساطة بين مواطن الإنتاج ومواطن الاستهلاك حتى يجتث جذور الاحتكار الخبيثة من أصولها .

* * *

روى عن فروخ خادم عثمان بن عفان أن طعاماً ألقى بباب المسجد — لبيعه — فخرج عمر — وهو أمير المؤمنين يومئذ — فقال ما هذا الطعام ؟ فقالوا طعاماً جلب إلينا ، فقال : بارك الله فيه وفيمن جلبه ، فقال له بعض من معه يا أمير المؤمنين قد احتكر ، فقال ومن احتكره ؟ قالوا فروخ خادم عثمان وفلان خادم عمر ، فأرسل إليهما فأتياه فقال : ما حملكما على احتكار طعام المسلمين ؟ قالوا يا أمير المؤمنين نشترى بأموالنا ونبيع ! ! فقال عمر سمعت رسول الله يقول : « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس » فعند ذلك قال خادم عثمان : فإنى أعاهد الله وأعاهدك على ألا أعود إلى احتكار طعام أبداً وتحول إلى مصر . أما خادم عمر — فقد أصر على مبدأ حرية التجارة — قال نشترى بأموالنا ونبيع ! ! .

قال أبو يحيى — راوى الحادث — فرأيت خادم عمر هذا « مجذوماً مشدوخاً » .

وعمر لم يكن الحاكم الذى يحارب الاحتكار بانتظار الجذام لمقترفيه .
فسيرته حافلة بالشدة فى انتهاج السياسة المالية الملائمة لمصلحة المسلمين . ولعله
وجد فى هذه الحالة تفاهة لا تستحق النكير أو شبهة اعتمد عليها هؤلاء الخدم
فاكتفى ببيان خطئها

منهج الدين

الإسلام — كدين — له تعبيرات وتوجيهات خاصة ، تمتاز بطابعها الذى
يقرن التجارة بالخُلُق ، والأعمال بالعقيدة ، والعقوبات الزاجرة فى الدنيا
بالأجزية المعدة فى الآخرة . ولا يستغرب منه أن يلجأ إلى وسائل التربية
النفسية أولا ، ثم إلى الأحكام التشريعية ثانياً ، ليصل إلى أغراضه الواضحة
فإن كان فى أحكامه إجمال . فعلى الحاكم أن يضع لها من التفاصيل ما يصل
بها إلى الأغراض المرسومة المعلومة !! ومنهج الدين فى محاربة الربا والاحتكار
والاستغلال بيِّن . فإذا لجأ إلى مكافحة هذه الآفات بالوعيدوالعمر فليست هذه
وسائله الأولى والأخيرة !

إن الإسلام يبغى أن ينقى المجتمع من هذه الشوائب ، وقد ظهر أن
الإملاق إلى جانب الترف يولدان الربا ، وأن موارد الإنتاج المهملة إلى جانب
الطبقات المستهلكة المصيّعة تلد حتما شركات الاحتكار المستغلة ، وضنك
المعايش المذلة .

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

وهذه وتلك لا تعيش إلا فى ظلال الاقتصاد الرأسمالى ، والتقسيم الإقطاعى
والاستعمار الداخلى والخارجى وهل تنشب الحروب فى العالم إلا لهذه الأسباب
وما ينشأ عنها من أطماع ، وهل يشيع الاضطراب والاحتراب إلا من تقاتل

الرأسماليين على استغلال الضعفاء وانتهاب ما بأيديهم من خيرات ؟ أفتبقى الدوافع إلى الحروب بهذه الشدة لو وقر فى الأذهان أن كل إنسان على ظهر الأرض يجب أن تكفل حقوقه المادية والمعنوية ، ثم ينتهى من تاريخ البشرية إلى غير رجعة طور الربا والاحتكار والاستغلال .

إن الإسلام من هذه الناحية قد قال كلمته ، وأعلن دعوته ، وأنصف الناس من أنفسهم ، ومن البرامج التى توضع لهم ، وذكر تاريخ الأولين لما ارتكبوا هذه المظالم لتكون منه عظة للآخرين : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ، وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ، وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » .

(٦)
الطبقات الكادحة

إنها أحب الطبقات إلى الله ، وأحقها بالحياة الكريمة ، وأجدرها بالمستقبل الباسم ، وأقربها — فى هذه الأعصار — إلى أماكن الصدارة فى الأمم ، ومواضع القيادة الناجحة فى مختلف الشعوب .

احتفى بها الإسلام ، وعمل على توسيع دائرتها حتى تشمل الناس قاطبة فلا يبقى فيهم عاطل ، واعتبر الأنبياء — وهم أصحاب الهدايات الصحيحة — عمالا يأكلون من كسب أيديهم ، وجعل شرار الناس أولئك القاعدين من غير عمل ، الطاعمين من غير جهد ، الناعمين من غير حق ، المشتغلين بالثرثرة لتضييع الفراغ « أشرار أمتى الذين ولدوا فى النعيم وغذوا به ، يأكلون من الطعام ألوانا ، ويتشدقون فى الكلام » كما جعل أخيار الأمة وأعز بنيها عليها هؤلاء الذين يعرفون رسالة الحياة ويؤدون ضريبة الصحة والعافية ويقضون أعمارهم فى العمل والسعى « ما كسب رجل كسباً أطيب من عمل يده » . وقد ورد أن الرسول قبّل يداً ورمت من كثرة العمل . وقال « تلك يد يحبها الله ورسوله » كما ورد عنه كذلك « من أمسى كالاًّ من عمل يده أمسى مغفوراً له » .

وكان بيت النبوة مثلا عالياً للبيوت التى تعيش لتعمل ، وتؤدى للمجتمع أضعاف ما تأخذ منه ، ولم يأذن الرسول لشارة من شارات الترف أو أمارة من أمارة القعود والراحة أن تدخل هذا البيت قط ! ولم يحك تاريخ الاشتراكية — ولن يحكى — عن معالم الحياة الداخلية لبيت من بيوت القادة الشعبيين ، مثل ما حكى عن البيت النبوى الخشن المكافح الذى يعمل كل فرد فيه حتى يقعده التعب ، ويشتغل حتى يجهده النصب ، ولسنا الآن بصدد سرد الآثار الناطقة بذلك من الكتاب والسنة فهى فوق العد ! ولكن أعجب ما فى التاريخ

الإسلاميّ من نقائض أن هذا النبي العظيم ، أفنى عمره فى الدعوة إلى تأليه رب واحد ، وجمع الناس على التآخى فى دينه والتعاون على حمل أعباء الحياة الكثيرة ، وهو لم ينل من حظوظ الدنيا أكثر مما يناله عامل يشتغل « باليومية » فى بعض الحرف المضنية . ثم جاء أناس باسمه . . وباسم الدين المشرق الذى أبلغ رسالته كاملة . . فتألهوا على الناس فى الأرض ! سخروا الشعوب للعمل ، وبقوا قاعدين ، وملأوا أفناء بيوتهم بفنون المرح والبطر ، على حين كلفوا الجماهير الشقية أن تدمى أظافرها فى التنقيب عن صبابة تمسك عليهم الرمق ، فلما جاعت الأجساد للخبز وجاعت الأرواح للحرية ، وجاعت الشعوب للكرامة المادية والمعنوية ، وجاءت الحضارة الأوربية تستغل هذه التعاسة ، وتزعم أنها تريد إنقاذ ذوى الجلابيب الزرق ، استفاق أخيراً المتكلمون باسم الدين ، وقرروا العمل ! ! أتراهم وصلوا متأخرين ؟ أحسب أنه لم تزل فى الوقت فسحة لإقناع الدنيا بأن أصول الدين المجردة تضمن لهم ما يلائم العقول ويريح الأفئدة ! !

حركات العمال . . .

ومما يلفت الأنظار أنه قلما يمر يوم دون أن نسمع عن مطالب للعمال تقدم وإضراب يقع أو يهدد به ، وتوطدت مراكز النقابات فى البلاد المتحضرة حتى أصبحت تملى شروطها على أصحاب العمل ، وأصبحت اتحادات العمال تحسب الدولة حسابها فيما تضع أو تدع من قوانين ! وقد يتخوف المتشائمون من عواقب هــذه اليقظة . ومن تأثيرها على أداة الإنتاج ، وهذا إن صح فى بلاد أخرى لم نعرف حقيقة أحوالها فلا محل له فى بلادنا . إن العمال هنا — زراعيين وصناعيين — يسعون لاستكمال ضرورات الحياة ، أما هناك فيسعون لاستكمال زينتها وبهجتها ، وقد ألّف العمال فى الغرب أحزاباً تولت

الحكم وأبدت فى إدارته كفاية رائعة ، أما فى مصر وغيرها من شعوب الشرق فقد ألفت أحزاب هزيلة للعمال ، وتولى رياستها نفر درجوا منذ نعومة أظفارهم على وضع أيديهم فى قفازات الحرير !

فما لهؤلاء ومشاكل العمل وحقوق العمال ؟؟

عزة بالإثم

لقد زادت نسبة الحساسية وذلك مما يبشر بالخير ، لكن الشقة لما تزل طويلة أمامهم لكى يصلوا إلى الحال السعيدة التى وصل إليها إخوانهم فى الغرب . والنقمة شديدة عليهم من جهات عديدة حتى من الرجال الذين وظفوا لخدمتهم والسهر على مصالحهم ! وفى مصر كثيراً ما يسلب الرجل حقه ؛ فإذا حدث بينه وبين خصمه جدال كان صوت السالب عنيفاً قوياً ، وصوت المسلوب خفيضاً محرجا ، ومن ثم تستباح حقوق وتغلق مصانع ، أو تؤكل أجور ، ويطرد فلاحون ، ويولد الاحتجاج على ذلك ضعيفاً أو ميتاً ، لأن العزة بالإثم شائعة فينا .

إن الاعتزاز بالنفس قد يكون أمراً مفهوماً ومقبولا عند ما يؤدى الرجل واجبه ويفرغ ذمته ويستوى سره وعلنه فى الإخلاص لعمله والقيام بحقه وحقوق الناس عنده أما التاجر الذى يغشك ثم تحمر عينه غضباً بدل أن يحمر وجهه خجلا إذا كشفت أمره ، وأما الموظف الذى يخونك ثم تنتفخ أوداجه كبراً بدل أن يتوارى شخصه خزياً إذا فضحت خبيثته ، فهؤلاء جميعاً معتزون بالإثم مستكبرون بالباطل . وينبغى ألا تأخذنا هوادة فى رغم أنوفهم وكسر نفوسهم ، فليس من حق الضلال أن يظهر به أن يعتز ويشمخ ! ! وليس من حق الظلم أن يبقى به أن يتغطرس وقد ذكر القرآن فى معرض الازدراء والقمع هذا الصنف الفاسد المفسد لنتخذ معه الأساليب

الجدية فى حسمه « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَام ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ » .

كرامة العمل ...

نريد بالعمل كل مايقى الإنسان شرور العطلة وآثام الفراغ ، فإن القعود فى الحياة نقص يعترى الرجولة وشلل يصيب المواهب ، ومهما توافرت لدى الإنسان دواعى الراحة فإن الركون إليها نسكبة تمحق فضائله ، وقديماً قال الشاعر يهجو :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

ولا زلنا نعانى طائفة من التقاليد التى آذت الشرق وأورثته الانحلال ، تقاليد التعالى عن الحرف والأشغال ومصادر الكسب التى بثها الله عز وجل وراء الأسباب المعتادة !! فالرجل الذى يأكل من فضل ثروته أوجه فى مجتمعنا من الذى يأكل من عرق جبينه ، والذى يجد القليل من طرق الكسب الشريف أهون جانباً من الذى يقع على الكثير فى ميادين التزوير والاحتيال وإذا قيل : فلاح ، أو عامل ، وقرت فى الأذهان صورة لا تشرف أصحابها . أو قل : صورة تسم أصحابها بالضعة وخمول الشأن ... لا ننكر أن المستويات العقلية والخلقية لهؤلاء الناس فيها ضعف كبير . غير أن هذا الضعف الشائن يرجع أكثره إلى تهويننا للحرف التى يتكسبون منها ، وغض المجتمع الذى نعيش فيه من قيمتها وقيمة أصحابها ، ولو أننا نغالى بها و بذويها لتقررت لهم فى النفوس مكانة أعلى وأرسخ .

ذُكر للرسول رجل كثير العبادة — لا يعمل — فقال : من يقوم به ؟ قالوا : أخوه . قال : أخوه أعبد منه . وقال : « إن الله يحب العبد المحترف »

وعن أنس قال : كنا مع النبي فى سفر فمنا الصائم ومنا المفطر . قال : فنزلنا منزلا فى يوم حار ، أكثرنا ظلا صاحب الكساء ، فمنا من يتقى الشمس بيده ! قال : فسقط الصوام — إعياء — وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب ! فقال الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر كلّه » ! فهذه كرامة العمل عند الله بالنسبة لطول العبادة والصيام ، بل إن الإسلام عد الإقبال على العمل والتشمير عن ساعد الجد فيه ، ضرباً من الجهاد فى سبيل الله .

مر على النبى رجل ، فرأى أصحاب الرسول من جلده ونشاطه — فى الاكتساب والارتزاق ما حملهم على الكلام فيه — قالوا : يا رسول الله لو كان هذا فى سبيل الله ! !

فقال الرسول : إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً ، فهو فى سبيل الله وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان .

ولقد أخذت الأمور مجراها الصحيح فى أقطار الغرب ، فقدر العمل حق قدره ، وكرم المجتمع هناك العمال انسياقاً مع منطق العقل السديد وانصياعاً لقوانين الحياة الجارفة . فكان من سعاة البريد من ارتقى حتى صار رئيساً خطيراً لدولة عظمى ، ومن سواق القطر من ارتفع حتى صار وزيراً كبيراً من دهاة السياسة لأعرق الأمم فى السياسة . ولو أن هذه الوقائع حدثت فى بلادنا لكانت مثار الدهشة ، ولاتخذت منها الصحف الهازلة فكاهة العمر لصعاليك القراء ! ! أذلك خير أم أن يصير الرجل ذا شأن هائل ، لأنه انحدر

من أسرة ذات شأن متوارث ؟ إن رجلا من عامة الناس يسمو بكفايته أرضى لله من أى إنسان يملك ذرة من الجاه لأصالته — كما يقولون — وقانون الإسلام يبتر كل شبهة حول ذلك المبدأ : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » ، ولكن الشرق الإسلامى وحده — من سائر بقاع الدنيا — هو المكان الذى تؤسس فيه دول بأسماء أشخاص هلكوا منذ قرون طوال ، بل هلكوا فى الجاهلية ! ! لأن الانتساب لهؤلاء الأشخاص هو الذى رشح وحده للسؤدد والمجد فيقال : « الدولة الهاشمية » و « الدولة السعودية » و « الدولة الفلانية » ولعن الله هيّان بن بيّان الذى لم يمنح بنيه إلا الفقر والضعة ! .

إن كرامة العمل تضيع فى البيئة التى تشتد فيها وطأة النظم الرأسمالية والإقطاعية ، لأنها بيئة الأوهام المقدسة ، والخرافات المبجلة ، فلا غرو أن تهمل فيها الأوزان الحقة للحياة ، وأن تضاع فيها القوعد الصادقة للتقديم والتأخير ، وأن تتناول فيها المبادئ العالية بطريقة تدعو للسخرية .. وتلمح ذلك فى نقاش الكفار للمؤمنين ، وكيف سجل القرآن وجهة نظر المبطلين فى الرد على الآيات بأغبى الاعتراضات وأتفهها : « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا . ؟ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا !! » فما وجه المقابلة بين طيب المقام وجلال الحق و بين فخامة نادى الكفر وقلة ما لدى المؤمنين من أثاثات !! وما لهذه المظاهر تذكر فى معرض الجد ، وليس هو مجال عرضها ؟ لا شىء ... إلا أن الشبه قريب بين هذا الغباء و بين تقدير بعض الناس اليوم لوجاهة القعود ونظافة ملابسه واتصال أناقته ، بينما يكلف العملُ رجاله أن يعفّروا جباههم و يلوثوا أيديهم و يخلطوا عروقهم بتراب الأرض ، وما درى الحمقى أن هذا التراب الندىّ بجهود الأبطال هو منبت الخصب والعمران والحياة ! ! .

العلاقات بين العمال وأصحاب العمل

للصلات القائمة بين الناس جميعاً حدود ينبغى أن نلتزمها ، وأن نشرب قلوبنا احترامها ، وأن نعلم الصغار والكبار الوقوف عندها . هذه الحدود تدور حول مبدأ تبادل الواجبات والحقوق ! يؤدى المرء ما عليه من الواجبات ويأخذ ماله من حقوق ، ومن العجز أن يؤدى ما عليه من واجبات دون أن يطلب ماله من حقوق ! ويكاد الناس يطبقون على صحة هذا الكلام — ولو نظرياً — بين الطبقات المتكافئة مادياً وأدبياً ! فإذا تفاوت الأفراد وكانت المعاملة مثلا بين خادم ومخدوم أو رئيس ومرءوس صار الغبن كله فى ناحية والغرم كله فى ناحية أخرى وأصبح قيام الصغير بما عليه فرضاً لازماً ، وقيام الكبير بما عليه نافلة ، يؤديها على سبيل التطوع إن شاء . ويجحدها — وهو السيد المطاع على أى حال — إن شاء ! !

كأن القدر إذا فرض على إنسان منزلة غير رئيسية فى الحياة ، فقد أهدر إنسانيته ، وأباح لأى معتدا انتهاب حقه . وهذا خطأ بعيد . فعن عائشة قالت : جاء رجل فقعد بين يدى الرسول وقال : إن لى مملوكين يكذبوننى ويخونوننى ويعصوننى ، وأشتمهم وأضربهم ، فكيف أنا منهم ؟

فقال له الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك ، وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم على قدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل ! فتنحى الرجل وجعل يهتف ويبكى فقال له الرسول أما تقرأ قول الله عز وجل «ونضعُ الموازينَ القسطَ ليوم القيامة فلا تُظلم نفسٌ شيئاً . وإن كان مثقالَ حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » ؟ فقال

الرجل يا رسول الله ما أجد لى ولهؤلاء بدًّا من مفارقتهم ، أشهدك أنهم كلهم أحرار . وهذا تشريع حكيم يكف يد الأذى التى قد يبسطها أصحاب الجاه والسلطة على من تحتهم ، ويقرر أن معانى الإنسانية المشتركة بين كافة البشر تكرّم فى كل شخص ولا تذكر لإنسان وتنسى لإنسان .

وقد تجاوز الناس هذه الحدود فى عصور الظلام .

حكى أن نبيلا فرنسياً قال لخادمه هات كذا فأومأ الخادم بالإيجاب وانصرف ليلبى الطلب . فاستوقفه النبيل فى غضب وقال له تقول نعم ؟ إن الذى يملك أن يقول نعم يملك أن يقول لا . يجب أن تصدع بالأمر فى صمت ؟ حرص هذا النبيل أن يلبس حركات خادمه ثوب الذلة . فلما اندلعت الثورة دفع ثمن هذه الغطرسة دق عنقه . أين هذا من روح العطف والسماحة التى تبدو فى جوانب نبى الإسلام لما جاءه سائل يقول له : كم أعفو عن الخادم ؟ فقال له فى اليوم سبعين مرة . فلنضع إذاً نصب أعيننا أن العاملين يجب أن تقدر إنسانيتهم فلا تمتهن ، وأن تقدر أعمالهم فلا ترتخص وأن تقدر طبقتهم فلا تترك لغوائل الحرمان وعوادى الزمان .. وسوق هذا الكلام فى أثناء التعرض لقضايا العمل فيه ضرب من التجوز . . . فليس العمال خدماً قط لأحد من الناس بخصوصه . إنما هم خدم لوظائفهم ومعايشهم وأمتهم و بلادهم . وفى هذا الميدان لا تخدش كرامة ولا يلحق عار . بل إن أصحاب العمل يشاركونهم هذه الصفة و يعملون معهم فى هذا المضمار بيد أن الرق الذى انقضى — ولله الحمد — أمده ، وانحسر عن الإنسانية عهده . قد بقيت له آثار جعلتنا نستمع إلى أن هناك رقيقاً أبيض ورقيق الأرض ورقيق الآلات . . وأخيراً رقيق الكبرياء السمجة التى لا تزال تغرى أصحاب الإقطاعات ورجال الشركات بأن ينظروا إلى العمال نظرة الراعى إلى قطعانه الغبية لا نظرة الرجل إلى إخوانه المتساوين

معه فى الحقوق والحريات ، وقد لا يصدق الناس الآن أن التعاليم التى سنها الدين لرقيق القرون الأولى تجعل حالتهم أفضل كثيراً من رقيق الأرض فى العصور الحاضرة .. فقد وصفتهم هذه التعاليم بأنهم : « إخوانكم جعلهم الله فتية تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه ويلبسه من لباسه . ولا يكلفه ما يغلبه فإذا كلفه ما يغلبه فليعنه ! » .

ويقول الرسول صلوات الله عليه : « للمملوك طعامه وشرابه وكسوته ، ولا يكلف إلا ما يطيق فإن كلفتموهم فأعينوهم . ولا تعذبوا عباد الله خلقاً أمثالكم » ويقول كذلك « أكرموهم ككرامة أولادكم وأطعموهم مما تأكلون » ثم يرغّب فى تيسير أشغاله وتخفيف أعبائه « ما خففت عن خادمك من عمله كان أجراً لك فى موازينك » ويهدد المتعنتين الميالين إلى الزهو والإذلال لمن تحت أيديهم من الناس « لا يدخل الجنة سيء المَلَكَة » ثم يطلب فصل الصلة بين السيد السفيه والعبد المظلوم فيقول «من لطم مملوكا له أو ضربه فكفارته أن يعتقه » . . وروى سويد بن مقرن قال كنا سبعة على عهد الرسول وليس لنا إلا خادم فلطمها رجل منا فقال الرسول : « أعتقوها » . قالوا إنه ليس لنا خادم غيرها قال : « فلتخدمهم حتى يستغنوا فإذا استغنوا فليعتقوها »

لكن هذه التعاليم المثالية وكلت إلى الذمم والضمائر وأبعدت عن سلطة الدولة وقوانينها فما هى إلا سنين حتى تبخرت من الرؤوس وتسربت من المجتمع واقترن بهذا الرق من الأسى واللؤم ما حمل العالم على استئصال شأفته وقطع دابره . وتم هذا العمل بعيداً عن رجال الدين فكان أرضى عمل لرب الدين رب العالمين . . والعبرة المستفادة من هذا الدرس الفريد أن العلاقات بين العمال ورؤسائهم لا يجوز أن تترك بعيداً عن هيمنة القانون الصارمة . بل لا بد أن تخضع لرقابة الدولة وسلطتها ، وعلى الدولة أن تجعل الصلة بين هؤلاء وأولئك

صلة الزمالة بين رجال أحرار جمعتهم الحياة على عمل واحد ومن العدالة أن يقتسموا مغارمه ومغانمه ، ولا يسوغ أن يكون عامل جائع عارٍ وصاحب عمل طاعم كاسٍ ، بل تعاون على الحالين فإن لم يكن العمال ملاك الحقل أو المصنع فليكن صاحب الملك عاملا فيه معهم حتى يجمعهم شعور واحد ويلمهم شمل واحد

حقوق العمال

للعمال الزراعيين أو الصناعيين حقوق كثيرة تكافىء الواجبات المرتبطة بأعناقهم ، وقد وصلت بعض طوائف العمال إلى تقرير مرتبات سخية لها و بقيت الجمهرة الكبرى تعانى كآبة الحاضر وقلق المستقبل وتنتظر ما يبت فى أمرها ويحسم من وجلها . والطبقات العاملة على اختلاف أفرادها وتنوع مهنهم ، بحاجة إلى ضمانات مادية وأدبية عديدة نذكر فى مقدمتها ما يتصل بجسم الإنسان والمحافظة على صحته ، وحمايته من الآفات والعوادى .

إن الجسم الإنسانى صناعة إلهية باهرة ، أحكمت القدرة العليا تكوينه ، وأبدعت تقويمه ، وحبته من وساقة التركيب وجمال الملامح ودقة الحواس ما يستحق منا أجل العناية وأعظم الحياطة . وكأن نشوة من الإحساس بهذا الإبداع الأعلى كانت تغمر قلب الرسول وهو ساجد لربه يقول « سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه و بصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » فمن أفن الرأى وحمق الفكر أن نعرض هذا الجسم لما يسلبه جوهره من القوة ، أو لما يسلبه من مظهره من الرواء ، أو ندع هذا البناء الإلهى يتهدم ويتساقط تحت تأثير العلل المفتعلة والإهمال المقصود ، بل قمن بنا أن نتخذ من الوسائل الصحيحة ما يحفظ علينا سلامة مشاعرنا وأعضائنا ، فإن ذلك كفيل بأن يبقى

علينا سلامة عقولنا وأفهامنا ، ويتقاضانا هذا الاتجاه ذكر بعض ما يؤدى إليه من أسباب .

المسكن الصحيح ...

الدور المهيئة للعيشة الكريمة لها أثر عميق فى كيان الإنسان وعافية بدنه من الأمراض ، ولها إيحاء يتغلغل فى تفكير الإنسان فيرسله طلقاً نقياً ، يستقبل الحياة من أفضل نواحيها نشاطاً وأملا . وإشعار الناس بهذه الحقيقة لم يكن بحاجة إلى تنصيص دينى ! فهو من شئون الدنيا التى يعرفونها بطبيعتهم ويسعون إليها بسجيتهم ، ولكن الإسلام خشى أن يأتى قوم فيسكنوا الخرائب — باسم الدين — ويهملون تأسيس بيوتهم وتأثيثها — باسم الإقبال على الآخرة — فقال النبى صلوات الله عليه وسلامه ، فى ذلك « ثلاث من السعادة المرأة تراها فتعجبك وتغيب فتأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك ، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق . وثلاث من الشقاء ، المرأة تراها فتسوءك ، وإن غبت لم تأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون قطوفا فإن ضربتها أتعبتك وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك ، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق » .

وقد وردت أحاديث شتى تكره المسكن الضيق وتصفه بأنه سوء وشؤم وهذا حق فإن كثيراً من الشرور المادية والعقلية تنبعث من الأزقة المتداعية والقرى الكابية التى يعيش فيها الإنسان والحيوان متجاورين ويأوى أصحابها إليها كما تأوى الحشرات فى الجحور .

إن الريف المصرى لاتصلح أموره بالترقيع ، كيف ؟ ونواحى حياته كلها بالية تتطلب حركة إفناء عاجل ثم بعث جديد ليقترب من المستوى النظيف

الرائع الذى وصل إليه الريف الأوربى . وطالما نسمع عن تجميل العواصم وإعداد المشروعات الضخمة لتنسيق شوارعها وتحسين ميادينها ، أما الريف فهو محروم من الماء النور والمرافق اللازمة لصحة بنيه ، ومن العجيب أن الإسلام حرم البول فى الماء الراكد والجارى وفى الموارد والظلال والطرق. ومع ذلك لم توضع وسيلة عملية لإغناء الفلاحين عن التخلى فى هذه الأماكن — وهى مصادر المرض ومكامن الداء — فأنى يجدى الإرشاد الصحى ؟ وما غناء المستشفيات مع بقاء هذه المباءات ؟ وقد نصح الإسلام بالبعد عن الأرض الموبوءة وترك السكن بها . قال فركة بن مسيك المرادى : يا رسول الله ، عندنا أرض هى أرض ريفنا وميرتنا وهى وبيئة ! فقال له : « دعها عنك ، فإن من القرَفِ التلف » يعنى أن القرب من الريف الموبوء متلفة للصحة . فإذا لم يكن بد من العيش به والكدح فيه فيجب إمداده بما يحفظ حياة بنيه وعافيتهم . فلا تكون أحوالهم كما نرى ونعرف من ضعف وضعة .

وعمال المدن لا يسكنون فى ميادينها الفسيحة ولا يقطنون أحياءها الفخمة بل يختفون فى شقوق الأزقة ومجامع القمامة ومواطن الذباب ، وكثيرمن دروب القاهرة وحارات العواصم الكبيرة لا يستحق إلا النسف بالديناميت ليعاد تسيرها على قواعد صحية جديدة ، فإن الإسلام يكره الدور القذرة : « إن الله تعالى طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود . فنظفوا — أفنيتكم — بيوتكم — ولا تشبهوا باليهود » ويبدو أن الآية انعكست فى هذا العصر ، فقديماً كان المسلمون يحذّرون من إهمال بيوتهم وتركها نهباً للقذارة والدمامة حتى لا يشبهوا اليهود . والآن يبنى اليهود مستعمراتهم فيتحول بها الريف إلى جنان ناضرة وقرى زاهرة بينما نحن على ما نعلم .

لو كانت الأمور تجرى على منطق الدين عندنا لكانت أجسامنا و بيوتنا وقرانا ومدننا نسقاً أعلى تحتذيه أم الأرض لتقتبس من جماله وطهره ووضاءته وهل ينتظر أقل من ذلك فى دين نصف تعاليمه فى الطهارة والوضوء وتجميل المظهر والمخبر على سواء . ولكن للدنيا شئون والجنون فنون .

ويقال إن الحكومة ستبنى للفلاحين قرى نموذجية : وهذه الرغبات الطيبة تبدو وتخفى كفقاعات الهواء فى البحر المائج لا تجد من يعين على تنفيذها، لأنها تولد فى محيط مصطخب الشهوات مضطرب التيارات من أهواء الرأسماليين والإقطاعيين ، ومظهرى الحنان الكاذب من الدجالين والجلادين .

الأجر الكافى

يوصى الإسلام بالمحافظة على حق العامل ، ويحذر من انتقاصه والافتيات عليه ، ويضرب الأمثال — على طريقته كدين — ليدلل على أن إيفاء العامل حقه وسيلة للنجاة من المحن التى قد تترادف على الأمم اجتماعياً وسياسياً لو ظلم فيها العاملون ويئسوا من نوال أجورهم كاملة والمثل الذى ضربه الإسلام لذلك فيه بساطة يدركها الأطفال وتلين لأفهامهم . فقد حكى أن رجالا أواهم المبيت إلى غار فانحدرت صخرة من الجبل فسدته عليهم فدعا كل منهم ربه بأحسن عمل قدمه فى حياته كى ينقذه من ورطته . فكان الأول براً بوالديه ، وكان الثانى حفيظاً على الأعراض ، وتوجه كلاهما إلى الله بصالح عمله ، فانفرجت الصخرة قليلا عن فم الكهف، غير أن ذلك لم يمكنهم من الخروج ، حتى قال الثالث « اللهم إنى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له فثمّرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال لى

يا عبد الله أدّ لى أجرى ، فقلت له : كل ما ترى من الإبل والبقر والغنم فهو من أجرك . فقال يا عبد الله لا تستهزىء بى ، فقلت إنى لا أستهزىء بك ، فأخذه كله فاستاقه أمامه فلم يترك منه شيئاً ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون » ! . .

وهذه القصة الطريفة ترمز إلى معنى عظيم من معانى العدل والنبل والفضل التى يجب أن يسير عليها صاحب العمل ليأمن موارد التلف وفواجع القدر ، وهى تشير إلى أن انتهاء العامل من أداء مهمته يجعل أجره أمانة فى عنق صاحبه يبقى وديعة لديه إلى آخر الدهر ، فإن عزله على حدة بقى له على حالته ، وإن أداره فى العمل واستغله فى جر أرباح زائدة فإن الأجر وأرباحه المضاعفة من حق العامل ، وليس لصاحب العمل منه إلا أجر عمله هو فيه ، إن شاء أخذه عدلا وإن شاء تركه فضلا كما فعل بطل القصة السالفة .

ولئن كانت هذه الحكاية الجميلة تشير إلى رأى الدين فى التعامل الفردى والأساس الذى ينبغى له ، فهى تشير من قرب أو من بعد إلى أن الأمة التى يفشوا فيها أ كل أجور العمل وغصب حقوقه الواضحة ليست الأمة التى تعيش فى ضمان السماء أو التى توقى نـكبات الحياة أو التى إذا أصابها حرج تُوقِّع لها الفرج ... بل على العكس لا تكاد تتردى فى هاوية حتى تجد من يتقدم ليهيل عليها التراب لا لينجدها : « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القُرَى إلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » وذلك سر نجاح الثورات الكبرى فى هذه الحياة ! إنها تندلع فى نظم قد دب فيها البلى ، وطال منها الظلم ، وابتعد عنها التوفيق ، وأدبر عنها النجاح فما تكاد نذر التمرد على الطغيان والاستبداد تظهر فى الأفق حتى يفغر التاريخ فمه ليبتلع دولة شاخت ويسلكها فى عداد الذكريات المرة ، وليتأذن بميلاد دولة جديدة ونظام جديد تتعلق به آمال البشر كرة أخرى

وهناك حالة نفسية يهتم لها الإسلام ويحتفل بها ويرقب أطوارها فى عناية بالغة ، حالة العامل المكدود فى شغله ، فإن الإسلام يرفض أن يراه ساخطاً متبرماً ، ويقرر له أن يعطى حتى يرضى ، وحتى يشعر بأنه مجدود فى حظه على قدر ما هو مكدود فى عمله . وليس أخطر فى حقيقته وآثاره ، من ترك العامل يشعر بأنه مغتصب الجهد منتقص الأجر . وأن تعب يمينه وعرق جبينه وتلوث إهابه وإضناء أعصابه يذهب سدى من غير مقابل معقول أو ثمن مقبول ، ولذلك يوصى الرسول بحسم هذا الشعور المرير : « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه » .

والمقصود أن يكون فى الأجر المبذول له تعويض كامل عما أدى من عمل وبذل فيه من قوة ، حتى يتكون فى نفسه إحساس بأن عرقه الذى لم يجف بعد هو مصدر هذا الكسب الماثل فى يده فلا ظلم ولا استغلال ! وهذه النتيجة هى المنشودة للدين سواء أخذ العامل أجره قبل جفاف عرقه أو بعده ! وقد عد الرسول صلوات الله عليه وسلامه من الرجال الذين يخاصمهم الله بنفسه يوم القيامة رجلا استأجر عاملا فاستوفى منه العمل ولم يوفه الأجر ! فأية جريمة شنيعة يرتكبها الفرد الظالم والمجتمع المتواطىء والدولة المهملة كهذه الجريمة التى تعرض مقترفيها لخصومة الله ! .

ومن الضرورات الملحة فى هذه الأيام وضع حد أدنى للأجور يراعى فيه أن يقوم بحاجات المرء الأولى ومطالبه المحتومة ، فإن الناس لم يخلقوا على ظهر الأرض مستغنين عن ثمارها وطيباتها « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ » فإعطاء الأجور الكفيلة بسداد هذه المطالب ، وتوفيرها للفقراء أبداً إليها أمر لا بد منه ! وهل يستغنى عنها أحد ؟

وبقى أن نعرف الأساس الذى تقوّم به أجور العمل تقويماً لا بخس فيه

ولا جور . . . أيترك ذلك لأريحية أصحاب العمل ؟ . لا ! أيترك ذلك العامل نفسه ؟ . لا ! فتلك أسس تعمل الأثرة فيها عملها وتترك مجال النزاع قائماً بين الفريقين لاتهدأ له حدة . وخير الحلول لهذه المشكلة أن يربط أجر العمل بحالة المعيشة العامة من غلاء أو رخص ، وحالة الأرباح الأخيرة من قلة أو كثرة وحالة الفرد نفسه من نشاط أو بلادة . وملاحظة هذه الأمور الثلاثة تقينا اضطرابات شتى وأوضاعاً متناقضة . فقد اتضح أن بعض الشركات تربح القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وتضن على موظفها بثمن بخس دراهم معدودة ، كما اتضح أن أحد مديرى الشركات أنفق على تشييد حمّام له عدة آلاف من الجنيهات مع أن العامل عنده يعييه شراء قطعة من الصابون ! والمفروض أنه إلى هذا العامل يرجع الفضل الأكبر فيما تستولى عليه الشركة من أموال طائلة . فمن المبادىء المعقولة بل التى يحتضنها الدين احتضاناً أن تراعى الأمور الثلاثة الآنفة فى تقدير الأجر الكافى للعامل . ومن ثم نحقق أهداف النصوص الشرعية السابقة .

تحديد ساعات العمل

المأثور عن أخلاق الرسول صلوات الله عليه وسلامه أنه ماخُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثماً . فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه والمعروف من وصاياه لأصحابه أنه كان يقول : « يسروا ولا تعسروا و بشروا ولاتنفروا » والله سبحانه يبين للرسول العظيم منهاج حياته — ولنا فيه أسوة — فيقول له : « ما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى » والرسول كذلك يزيد الأمر وضوحاً فيقول للناس « روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عميت » ونصوص الدين إذا استهديناها وروحه إذا استوحيناها تشير إلى أن

الاستمرار فى الأعمال إلى حد الإرهاق أمر لا يأذن به الشرع ولا يرضى عنه الله سبحانه .

ومن هنا نعرف حكمة المطالبة بتحديد ساعات العمل وسبب استمساك العمال بها — في الأحوال المعتادة — فإن الطبقات الكادحة لا تتكون من مردة وشياطين بل من أناس لهم مشاعر وعواطف تستحق الاحترام ولهم مطلق الحرية فى أن يستمتعوا بزينة الله التى أخرج لعباده،وأن يتركوا جو العمل الجاد ليتنفسوا فى جو الحياة المرحة ومواطن اللهو المباح . و ينبغى أن يلقّن المسلمون دينهم على هذا النحو السمح ، وحسب الدنيا ما أصابها من عناء وضيق عندما تلقت تعاليم الدين على أيدى غلاة المتصوفة ومحترفى التقوى وأصحاب الأمزجة السودة ممن ضرب الله الحياة بهم ضربة بلى واضمحلال وتعفن .

على أن تحديد ساعات العمل تشريع يناسب أوقات السلم خاصة . أما أزمنة الحرب وما يشبهها من الفترات التى تحتاج الأمة فيها إلى أن يضاعف أبناؤها جهودهم وأن ينتظموا جميعاً فى كتائب العمل المتواصل ليلا ونهاراً فإن لها لا ريب قوانينها المؤقتة ! وفى الحرب ترخص الدماء فلا جرم أن الجهود ترخص ولو استنزفت ما لدى الإنسان من طاقة . لكن الواجب أن يوزع هذا التعب على طبقات الأمة بنسب عادلة ، حتى لا تستريح طبقة على حساب أخرى ! فإذا عادت السلم لم يبق مسوغ للإرهاق والحرج . ولقد كانت نقابات العمال فى أقطار الغرب تطالب بأن يكون أسبوع العمل أربعين ساعة و بذلك يعطى العامل فرصة ليأخذ نَفَساً عميقاً فى راحته الطيبة . أما لدينا فقد سمعت من أفواه العمال ، ومن الفلاحين المحرو بين أن هذه الدنيا (أشغال شاقة وآخرها الإعدام) وهذا تعبير يقطر أسى وقنوطاً ! وعلته أن العامل زراعياً كان أو صناعياً يعتبر آلة من آلات الإنتاج الصماء لا يزال يستغل حتى يستهلك

فإذا اعتصر خيره وجفف عوده وأصبح لا يصلح لشيء رمى به إلى الخارج ليتسول بقية حياته ثم ليموت على مهل أو على عجل ! اما التفكير فى إعطاء العامل قسماً من يومه وأسبوعه ليروى ظمأ مشاعره من الحياة التى يعيش فيها فذاك أمر لا يخطر على بال .

العلاقات بين الملاك والفلاحين

ومن النقائض التى تقع فى مصر وفى أشباهها من البلاد المنكوبة بالمظالم الاجتماعية والسياسية ، أن هناك أقواماً يعملون كثيراً ولا يملكون شيئاً قط وأقواماً يملكون كثيراً ولا يعملون شيئاً قط . وربما وجدت الرجل يقضى العمر الطويل يحول الطين وروداً ورياحين ، ويشقى هو وأولاده أجمعون ليخرجوا المخبوء من تربة هذه الأرض فيمزجون دمهم ببقلها وفومها وعدسها وبصلها ، ويحرمون منه ! ، والعلة فى هذه النقائض أن هذا ورث وهذا لم يرث . وقد علمت كيف بدأت هذه الموروثات وكيف آلت لأصحابها ، أما رأى الشارع فى هذه المواريث فمعروف جاء رجل من حضرموت ورجل من كنده إلى النبى صلوات الله عليه وسلامه ، فقال الحضرمى يا رسول الله إن هذا قد غلبنى على أرض كانت لأبى ! فقال الكندى هى أرض فى يدى أزرعها ، ليس له فيها حق ! — احتجاج بوضع اليد عليها والتصرف فيها — فقال الرسول للحضرمى ، ألك بينة ؟ قال : لا قال : فلك يمينه ! قال الحضرمى إن الرجل فاجر ! لايبالى على ما حلف عليه وليس يتورع عن شيء فقال ليس لك منه إلا يمينه — إذ عجز عن الإدلاء ببينة — فانطلق ليحلف وفى رواية قال الحضرمى أَحَلِّفْهُ والله ما يعلم أنها أرضى اغتصبنيها أبوه ، فتهيأ الكندى لليمين فقال الرسول : من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرىء مسلم هو فيها فاجر

لتى الله أجذم . . فخاف الرجل وقال : هى أرضه ، وتركها له . . وهذه القصة لا تشبه من جميع وجوهها الحالة التى تحدث الآن فى بلادنا بيد أنها تمثل الأطراف المقيتة منها . وقصة الملكية فى مصر قد اكتنفها من التعقيد والالتواء ما يملأ الأفئدة ضجراً ! ! وخير ما تعالج به أن تقيد هذه الملكيات فى الحال . . وإلى أن يتم هذا التحول نريد أن نبحث الآن الصلات القائمة بين ملاك الأرض والعاملين فيها

تستخدم الدوائر الزراعية طوائف الأحداث فى شتى المناسبات للعمل فيها، وأبرك هذه المناسبات وأحفلها بالبر والخير تلك التى تهجم فيها أسراب الدود على الثمار والمحاصيل تحاول الفتك بها فتلجأ هذه الدوائر إلى استيراد الأولاد من القرى الفقيرة . ومن مواسم هذه الآفات يرتزق جمهور كبير من الفلاحين وأولادهم . بل هى أيام أفراحهم وأعيادهم ! ! والأجور التى تصرف لأولئك الصغار تافهة يباع فيها الجهد الإنسانى بأقل الأثمان . ومع ذلك لا تصل هذه الأجور إلى مستحقيها كاملة ، فإن السماسرة يفرضون عليها ضرائبهم و يسرقون منها ما يمكن الاستيلاء عليه . وهذا حرام لاشك فيه وقد نص الرسول على حرمته « إياكم والقُسامة . قلنا وما القسامة قال الرجل يكون على الفئام من الناس فيأخذ من حظ هذا وحظ هذا » .

فهل تدرى مكاتب العمل الحكومية شيئاً عن هذه الأحوال ؟ إن هؤلاء الأولاد يقضون أيام عملهم ولياليها يطعمون شر مطعم و يبيتون شر مبيت ! ثم يعودون إلى قراهم المتلهفة لمقدمهم وقد نال منهم الإعياء وأصبحوا فريسة سهلة للأمراض المتوطنة أو للعلل الوافدة ، ولولا إلحاح الحاجة وعض الفقر ما فرّط الآباء فى فلذات أكبادهم بذلك الهوان .

وقد كان الآباء يمنعون أولادهم من الانتظام فى سلك التعليم ليحمّلوهم

— وهم صغار — أعباء البحث عن الرزق فى بيئة شحيحة به ! فلما كفل الطعام أخيراً لصغار التلامذة أقبل المتنعمون ثانية وازدحمت بهم الفصول حتى أصبح دخول المدارس يحتاج وساطات . أليس فيها الطعام العزيز ؟ أليست هذه نقائض تستلفت نظر الأغبياء ، أن يعيش أفقر شعب فى أخصب أرض وأن تعيش أمة مريضة فى أصحى جو وأصفاه . وأن يعز القوت فى البلد الذى ينتج الأقوات ؟؟؟ على أن فى النفس أشياء من تكليف هؤلاء الأطفال مؤنة لكسب وتحميلهم مشاق العيش ، وخصوصاً فى جو يفيض بالنقائص ويكتظ بأسباب الاحتيال والضلال . وقد كان عثمان بن عفان يقول :

« لا تكلفوا الصبيان الكسب ، فإنكم متى كلفتموهم الكسب سرقوا ، ولا تكلفوا المرأة غير ذات الصنعة الكسب فإنكم متى كلفتموها كسبت بعرضها ، وعفوا إذا أعفكم الله ، وعليكم من المطاعم بما طاب منها » والكلمات الأخيرة من وصايا عثمان بالعفاف لو أحيطت بالضمانات المعقولة لاطمأننا إلى أن ما يحذر لن يقع !! لكن ما الحيلة إذا تلفت الناس فلم يجدوا مرتزقهم إلا أعشاباً تنبت فى الصخور وأقواتاً من رجال مردوا على القسوة والفجور ؟

وإلى جانب هؤلاء الأطفال المطالبين بالتكسب من نعومة أظفارهم ، وما أظن أظفارهم إلا خشنة من ساعة الميلاد ، يوجد صنف آخر من الفلاحين هم سكان العزب والقرى التى سقطت بما فيها ومن فيها بين مخالب أصحاب الإقطاعيات الشاسعة كما تسقط البلاد المهزومة فى أيدى الجيوش الغازية !! وهؤلاء الفلاحون يجدون معايشهم المحدودة منتظمة نوع انتظام ما داموا قادرين على خدمة الأرض وسادتها . . . فهم فى هدنة من حاضرهم ما بقيت صحتهم تعينهم على شق الأرض و بذر الحب ، والويل لهم إن أصابهم مرض . لقد اضطرب مستقبلهم ، وخيبت آمالهم ؛ فهم فى بيوت لا يملكونها ،

وفى زراعة لا يملكونها ، ووراء حيونات لا يملكونها ، ومعنى عجزهم عن العمل أن يخرجوا هم وأولادهم ونساؤهم ويتركوا خلفهم هذا كله .. لرب الأرض المحظوظ . وقد ارتفعت صيحات شتى بأن « الملكية » وظيفة اجتماعية تفرض على المالك أن يعنى بمن عنده من طوائف الفلاحين يمدهم إذا احتاجوا أو يسعفهم إذا نكبوا أو يوفر لهم الغذاء والكساء والدواء ، ولكن هيهات . إنها صرخات ذهبت فى واد ، فما طاب بها مالك نفساً ولا رفع بها فلاح رأساً وما من ذى نعمة من هؤلاء الملاك البطرين إلا والفلاح التعس رب نعمته ومصدر ثروته ومتكأ وجاهته، غير أن الفلاح محروم من هذا الذى صنعت يداه — وهو منه قريب — كما تحرم الإبل فى الصحراء من الماء محمولا على ظهورها وهى تكاد تهلك عطشاً .

ومن العجائب ، والعجائب جمة قرب « الطعام » ؟ وما إليه وصول
كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والمـــاء فوق ظهورها محمول

وثم صنف آخر من الفلاحين ، هم مستأجرو الأرض من ملاكها الصغار أو الكبار ، والظاهرة الفذة أن هذه الإيجارات قلما تنتهى بخير إلى جانب الرجل المرهق فيها ، فإما عاش المستأجر من غلتها كفافاً لا له ولا عليه ، وإما استدان للوفاء بحقوقها المربوطة بعنقه . وربما باع فيها بعض أملاكه الشخصية بعد مآسى تشهدها المحاكم ومحاضر الحجز ، ويتوسط فيها أهل الخير والشر ! !

بين العمال والشركات

ونقل تلخيصاً للأستاذ راشد البراوى عن حالة طائفة أخرى من العمال الذين تحسن الرأسمالية استغلالهم إلى آخر رمق ولا تفكر قط فى الإحسان إليهم والأخذ بيدهم .

وهو تلخيص مستق من مصدر حكومى قال :

جاء فى تقرير بعثة وزارة الصحة لدراسة الحالة العامة للعمال فى المنطقة الصحراوية بسواحل البحر الأحمر « وقد ثبت للبعثة من اطلاعها على بيانات مراكز العلاج هناك على ضآلتها أن أغلبية العمال قد أصيبوا بالحمى والنزلات الشعبية وبالروماتزم علاوة على حالات التسمم بالمنجنيز الذى ينتهى بالشلل ، ومما لفت نظر البعثة أن العمال الذين يشتغلون فى حفر الآبار كانوا يصعدون على سلالم حديدية على ارتفاع كبير يزيد على ٣٥ قدماً ، وهم بملابس رقيقة لا تقيهم شر البرد القارس على هذا الارتفاع . حيث يمكثون فى المرة الواحدة مدة تتراوح بين ٦٠ و ٩٠ دقيقة ليلا ونهاراً .

وقد لاحظت البعثة أن حالة العمال فى منجم الحويطات سيئة للغاية بالنسبة لزملائهم فى المناجم الأخرى . إذ نحلت جسومهم بشكل واضح علاوة على التهوية الضعيفة فى المنجم ، وانخفاض سقفه مما يضطر العامل للعمل وهو منحن باستمرار . وفى منجم المطشانة وصل ضيق التنفس والاختناق داخل المنجم إلى حد كبير ، علاوة على أمراض العيون التى تنتشر هناك . ومع كل ذلك فإن الأدوية والعقاقير التى تبعث بها وزارة الصحة لا تكاد تكفى لحاجات العشرات .

ومن المؤلم أن منطقة مرسى علم وبها ستة مناجم تضم ٧٤٢ عاملا ، ليس بها سوى نقطة إسعاف واحدة صغيرة ، يعمل بها تومرجى حاصل على شهادة حلاق صحى .

ومن الدلالة على جسامة إصابات العمل فى هذه المناطق أن البعثة قد حصرت وحدها فى خلال مدة قصيرة ١١٧ إصابة بين عمال شركة رأس غارب و ١٣٠ إصابة بين عمال شركة الغردقة و ٦٩ إصابة بين عمال شركة سفاجة

و ٣١٩ إصابة بين عمال شركة القصير و ١٢٤ إصابة بين عمال شركة الحرية فيشيا و ٢٠٣ إصابة بين عمال شركة سلنشيليو .

وقد لجأت الشركات فى هذه المناطق إلى فصل العمال الذين يقعد بهم المرض دون تعويض ، فكشفت البعثة فى رأس غارب عن فصل خمسة من العمال أخيراً ، أولهم بسبب الضعف العام . وثانيهم بسبب ضعف النظر . وثالثهم بسبب التهاب الكلى . ورابعهم بسبب البول السكرى . وخامسهم بسبب السل الرئوى .

ثم جاء أن البعثة قد لاحظت أن الشركات لاتعنى بشروط وقاية العمال . فعمال الشحن بشركة أبي زنيمة مثلا لا تصرف لهم القناعات التى فرضتها الحكومة أثناء مزاولة العمل ، حتى لا يصابوا بالتسمم الذى يفضى إلى الشلل . وكذلك الأمر مثلا فيمن يعملون فى ضغط بعض الغازات كالبنزين إذ لاتصرف لهم المناظر والقفازات التى تقيهم من تأثير الهيدروجين المكبرت ، مما سبب كثيراً من حالات التهابات الملتحمة . وكثيراً من حالات الالتهابات الجلدية بأيدى عمال الآبار ، والأمر أشد هولا فى شركة سفاجة ، إذ العمال معرضون هناك باستمرار لمسحوق الفوسفات دون وقاية لصدورهم وعيونهم .

ولعلاج هذه الحالة يجب تهيئة جو صالح أثناء العمل ، وذلك بإصدار قانون المصنع حتى يمكن تعديل النظم الحالية المعمول بها فى الوقت الحاضر ، تنفيذاً لقانون الرخص الصادر سنة ١٩٠٤ وحتى يمكن عند الترخيص بإنشاء إدارة المحال الصناعية مراعاة توفر الأمكنة الصالحة لقضاء فترات الراحة وتناول الطعام، والتخلص من الغازات والأبخرة والدخان والغبار والسوائل ، علاوة على مايوضع الآن من الاشتراطات الخاصة بالموقع والإضاءة والتهوية وموارد المياه وغير ذلك من الشروط الصحية الأولية .

ومن مميزات هذا المشروع أن يتمكن أصحاب الأعمال من الوقوف مقدماً وقبل تنفيذ مشروعاتهم على الاشتراطات الواجب توافرها ا . هـ .

* * *

وقد وقر فى أذهان هؤلاء العمال أن الكسب والخسار أقدار قاهرة لادخل فيها لتعب الإنسان وكفاحه . وذلك لطول ما عملوا وتعبوا وكافحوا ولم يجدوا ربحاً يذكر أو نفعاً يؤثر . ولطول ما رأوا الأعيان يروحون ويغدون ناعمى البال هادئى النفس مطمئنين إلى اليوم والغد كأن الشاعر همس فى أذن كل واحد منهم ببيته الناعس الرخىّ :

وإذا السعادة لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

ومثل هذه الفكرة شر مستطير على الشعب الذى يعتنقها .

وأسوأ ما تبلى به أمة أن ينتشر هذا الفهم للقضاء والقدر بين أبنائها وأن تعامل على ضوئه كلا من أصدقائها وأعدائها إنه منطق معكوس . لا نتيجة له إلا قلب الحقائق وإلقاء اليأس فى النفوس . . وقد نشبت الحرب الأخيرة ورأت الحكومة أن الضرورات تقضى بتحديد إيجار المساكن فسنت لذلك قانوناً لا يزال سارياً إلى اليوم . بيد أنها رفضت أن تضع أى تحديد لإيجارات الأرض مع تعطش الجمهور فى القرى والمدن جميعاً إلى سن مثل هذا القانون . وهذا التصرف من غرائب التشريع فى العالم ، وعلته هنا تغليب المصلحة الفردية على المصلحة العامة وترك نفر من الكبراء والأغنياء يعيشون فى مستوى شاذ من الترف والسرف بعيداً عن الإحساس بأية تبعة فى أعناقهم نحو الأمة التى يعيشون على قلوب بنيها . أما الجمهور فقد عانى وما يزال يعانى غلاء فاحشاً فى الخضراوات والفواكه والألبان واللحوم . ولم يفلح تسعير هذه المواد فى وقف موجة الغلاء الكاسحة إذ أن العلة الأولى باقية وهى ارتفاع إيجار الأرض ارتفاعاً لا مبرر له . إلا أن يزداد الغنى غنى والفقير فقراً .

(٧)

دين واقعي لا خيالي

قد يقال ما للأديان وهذه المشاكل تتصدى لها ؟ وجدير بها أن تقف عند خصائصها الأولى فتوضح المسائل الآلهية وتشرح التعاليم النفسية والخلقية. ولئن نجحت فى هذا الميدان فقد كسبت معركة الحياة حقاً ، وأدت رسالتها كاملة ! وهذا رأى له وجاهته لو أن الدين بقى على ما فهمه الناس فيه . من طقوس تقام ، ورسوم تصان ، وبخور يحرق ، وأيد تقبل ، وملامسة للنفس الإنسانية من أضيق جوانبها ، وتعرض لقواعد الأخلاق من الناحية السلبية التى لاتعرف إلا الأمر المجرد والنهى المجرد ، ولو أن هذه الأشياء هى حقائق الدين وقصارى جهده فى توجيه الحياة الإنسانية والهيمنة عليها لوجب إقصاء الدين عن دنيا النـاس فوراً . . لـكن الدين — كما أبدينا فى المقدمة — هو الفطرة السليمة والعقل الرشيد . . والأنظمة العمرانية التى تتجه إليهـا الفطرة ويستريح إليها العقل ما دامت تمشى فى حراسة الضمير اليقظ للوصول بالله — ملك الناس إله الناس فهى دين لاغبار عليه . . أى إن الدين له مركز ثابت لا يتغير ولا يتنقل — كنقطة ارتـكاز الدائرة — هو الضمير الإنسانى وله آفاق تمتد وتتسع وتترامى فى شتى الأمكنة والأزمنة لـكنها ترتبط بهذا الضمير ارتباط محيط الدائرة بنقطة ارتـكازها ، وهذه الامتدادات ليست إلا عمل المواهب البشرية فى هذه الحياة . وهى لاحدود لها ولا تخوم وإنما صنعت لها الحدود وأقيمت فى وجهها السدود أيام التأخر العقلى الغابر .

والإسلام دين يقوم على هذه الحقائق وحدها ، ويبرأ من الأوهام متى اتصلت به لتجعله دين كهنوت وجبروت ، كالأديان التى سبقته ، ثم حال لونها على مر الزمن ففسدت وأفسدت على الناس حياتهم ، وملـكت نواصيهم لأصنام من الحجر أو أصنام من البشر . وما هكذا أنزلت من عند الله ولا هكذا

يحب الله للناس « وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ » ولقد كره نبى الإسلام أن يطلع دينه على الناس وهو يرتدى لم مسوح القساوسة ، وخشى أن تضيع أركانه الحقة كما ضاعت الرسالات الأولى بين حملة العمائم ولبسة الطيالسة . وحذر أمته عواقب السير فى هذه الطريق فقال « إنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين !! » وكأنما رمق المستقبل وما يطرأ على الأمم من تطورات تهدد كيانها وتخدش رسالتها فقال « ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل » ولو أن الأديان تؤخذ من أحوال أصحابها وأعمالهم لسقط الإسلام فى هاوية لا يقام منها ، ولكن قوة الاقناع والإيمان من التعاليم الأولى المجردة لا تزال فى مستواها العالى تفهم الإنسان أن الدين قلبٌ حرٌ يعنو لله وحده ، وعقل حر ينطلق فى آفاق الحياة انطلاق الشعاع ، وإرادة حرة تعلو على الشهوات والأهواء والمباذل ، فمن فقد ذلك فقد الدين ولم تجده فتيلا شفاعات الأرض ولا وساطات السماء . ومن وجد ذلك وجد الدين ولم يضره قليلا تألب الحمقى ولا استنكار الأغبياء . إن الإسلام أسقط الوسائط بين الخلق والخالق وجعل التدين الصحيح صنواً للتفكير الصحيح ليس احتكاراً ، لطائفة ولا خاصاً بإنسان . ومن ثم فهو قائم على الحقائق المتغلغلة فى عروق التاريخ إلى الأزل الممتدة على وجه الحياة إلى الأبد ، وبهذا أصبح الإسلام ديناً إنسانياً عاماً ، يشرع للإنسان على أنه جسم وروح فلا يفرق بين جوانبه المادية والمعنوية لا فى التكليف ولا فى الجزاء . ويشرع للدنيا كما يشرع للأخرى على أساس أن الإنسان سيعيش فى «الآخرة» — حتما — كما عاش فى الدنيا — قطعا — فمن عمى عن الحقائق الصحيحة هنا لم يبصرها هناك « وَمَنْ كَانَ فِى هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلا » .

ثم حارب الإسلام فكرتين تتسلطان على أوهام الناس غالباً كلما ذكرت الأديان .

الغلوّ فى العبادات ..

وتلك هى الفكرة الأولى ، وتصدق على أحوال طائفة من المتدينين الذين ينتمون إلى بعض الهيئات الإسلامية أو الفرق الصوفية ، ولئن كان الغلو الآن ليس صفة شائعة عند جمهور المسلمين ، لأن التفريط يغلب على تصرفاتهم ، إلا أنه أمل العصاة منهم إذا ثابوا إلى رشادهم ، وقرروا إصلاح أمرهم ، وإقامة عوجهم ، إذ تظن كثرتهم أنه أمارة الخير ودليل التقى ، حتى ليقع فى عرف الناس أن طول العبادة وعرضها واستغراقها لأوقات أصحابها صفات لا تنفك عن العبادات العظيمة المتقبلة ! ويوجد الآن من طوائف المسلمين من يقضى نصف يومه فى الصلاة وحدها ، ويزعم أن الدين لا يصلح إلا بهذا التغالى ، وهذا خطأ ، فعن سهل ابن أبى أمامة أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك — صاحب الرسول — فإذا هو يصلى صلاة خفيفة كأنها صلاة مسافر ! . فلما سلم قال له يرحمك الله ، أرأيت هذه الصلاة المفروضة أو شىء تَنَفَّلْتَهُ — تطوعت به — ! قال إنها الصلاة المفروضة ، وإنها لصلاة الرسول صلوات الله عليه وسلامه ما أخطأت إلا شيئاً سهوت عنه . ثم قال إن الرسول قال : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدّد عليكم ، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والأديار : « رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » .

ويشيع الآن بين جمهور المسلمين استعمال السبحة ، كأنهم لم يكفهم ما شرع الله من أذكار ، فزادوا فيها ما يبلغ به الدين تمامه ! وربما حرص

بعضهم على نوافل الدين أكثر مما حرص عليها صاحب الرسالة نفسه . ونستطيع القول بأن هذا الإغراق يكاد يكون مظهراً عكسياً لانحلال عرا الإيمان فى النفس ، وأن الباحث عن جوهر الدين لا يجده فى أفئدة هؤلاء المغالين الدجالين . وإذا وجد منه شيئاً فنسبته تافهة إلى جانب المظاهر الكثيفة التى يتظاهرون بها ويتطاولون فيها .

ودلالة ذلك أن هذا التغالى لا يقع إلا فى العبادات الشخصية القائمة على الإيمان بالغيب ، ولا يقع فى العبادات الاجتماعية القائمة على التواصى بالحق والصبر والتعاون على الخير والبر . ولا فى العبادات السياسية المبنية على الجهاد الدموى والمالى لتحقيق الأهداف الإنسانية العليا ؛ فإذا فات الشخص حظه من هذه العبادات فقد فاته لباب الدين ، فما يجديه التغالى بعدئذ فى مظاهر الصلاة والصيام ؟ وإنما وقع الغلو المذموم فى النوع الأول من العبادات وحده وازدحم المتنطعون على موارده لأن التلبيس به ممكن على النفس وعلى الناس ومقياس الصحة والفساد فيه والقبول والرفض له غيب عند الله وحده . .

والانفعالات النفسية التى تدفع أصحابها إلى الإغراق فى التعبد لا ميزان لها عند الله . إنما الميزان الراجح لما يتعوده الإنسان من أعمال صالحة يستقيم بها خلقه وتزكو بها نفسه ويسمو بها ضميره وسلوكه حتى الممات ، ولقد روى عن الرسول — وقد أخبر عن مولاة له تقوم الليل وتصوم النهار — فقال : « إن لكل عامل شِرّة ، ولكل شرة فترة فمن صارت فترته إلى سنتى فقد اهتدى ومن أخطأ فقد ضل » .

التزهد فى الدنيا

من أقسى المطاعن التى وجهت إلى الدين فى صميمه ، ونالت منه فى هذا العصر شر منال ، أنه عدو لدود للعمران البشرى ، وعقبة كؤود أمام النشاط الإنسانى ، وسجن مطبق السدود للغرائز المرحة المهتاجة ، والعواطف المنطلقة الجياشة ، والأفكار الحرة المحلقة فى طباق الأرض والسموات، مع أن هذه كلها وقود الحياة المنطلقة فى طريقها ، والسائق الحادى للقافلة البشرية كيما تملأ البر والبحر زحاماً وتجديداً و بناء وتعميراً وهذه التهمة معرة تلتصق بتدين الرسوم والطقوس ! وبالتعبد الذى يبنى مبادئه الأولى على التجاهل للفطرة وتزييف اتجاهاتها وتزوير نزعاتها ! ! والديانات التى تأتى للإنسان فتمحو من حياته أخصب مشاعره وأمسها برسالته الدنيوية لا تستحق أن تبقى . وقد نفى الإسلام عن نفسه فى حرارة وحماسة هذه التكاليف الباطلة ، وأهان من يتدخلون فى السلوك الإنسانى ليحلوا منه ما شاءوا ويحرموا منه ما شاءوا : « وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هٰذَا حَلاَلٌ وَهٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ . إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » . بل اعترف الإسلام بالغرائز الإنسانية اعترافاً كاملا ، وواجه بها الحياة مواجهة سافرة ، وقدر المدى الحيوى الذى يحتاجه كل فرد ثم منحه إياه ، ولم يبتر من الطبيعة الأصيلة فى النفس عرقاً ، غاية ما صنع أنه تدخل فى « المظهر السلوكى » لهذه الغرائز فنهج به المنهج الذى أقره علم النفس الحديث منهج التسامى بالنزعات الساذجة واستبدال ما هو خير بالذى هو أدنى . ومن هنا أحل الطيبات كلها يغرف الإنسان منها و يرتوى حتى يشبع نهمته ووطأ للناس ما فى الأرض جميعاً ينتفعون منه قدر طاقتهم .

بل وزع الكواكب فى السماء يستريح إليها طرف الإنسان إذا شاء المتعة « وَلَقَدْ جَعَلْنا فى السَّماء بُروجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِين » وجعل للجسد حقاً وللعين حقاً وللأهل حقاً وللضيف حقاً وأوصى أن يعطى كل ذى حق حقه .
ولم يجعل التمكين فى الدنيا والاستخلاف فى الأرض أمراً تافهاً تدركه الشعوب المزيلة أو الأمم التى لاقدرة لها على التعمير ولا كفاية لديها للإجادة والتنظيم ، كلا مليس يرشح للسيادة فى الأرض إلا الصالحون للوصول بالإنسان إلى مكانته العظمى فوقها « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأرْضَ يَرِثُها عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فى هَذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِين » .

ويدل على هذه الحقيقة أن الله تعالى امتن على يوسف الصديق بأن مكن له فى الأرض — بهذا المعنى — يدير شئونها ويشرف على أهلها ، ويهيمن على خزائن المال فيها : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاء وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » وهذا فى الدنيا فقط ولذلك يقول بعدها : « وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُون » ولما أصبحت شئون الدنيا لاتزن عند المسلمين جناح بعوضة أصبحوا هم — شعوباً وحكومات — لايزنون فى نظر العالم جناح ذبابة ، ولما فاتهم السبق فيها وأعجزهم النبوغ فى علومها وفنونها أفلت الزمام من أيديهم وأضحت سياسة العالم تدور بعيداً عنهم بل تدور للمكر بهم والكيد لهم .

إن الدين يكره أن تأتى الدنيا للإنسان من حرام ، ويكره إذا جاءته أن يسخرها فى خسائس الأمور ومحاقرها ، لكنه يطلب طلباً حاسماً أن يقبل الإنسان عليها من أبوابها المشروعة ، ولأمر ما ارتفع الإسلام بالتجار الذين يكسبون الحياة ويحوزون الدنيا من هذه الطريق حتى سلكهم مع النبيين

والصديقين ، كما ارتفع بالفلاحين الذين يشقون الأرض ؛ فجعل ما يطعم الناس والدواب والطيور من زراعتهم صدقات ماضية الأجر إلى يوم القيامة ، وهكذا يعمل المؤمن للحياة مادام حياً ، فتتصل به و بغيره مواكب العمران ، وتعتز به و بجهده حقائق الإيمان فإذا جاءه الموت جاء لينقله من حياة كفاح إلى حياة فلاح ، فهو يلقاه مقبلا لا مدبراً .

متى جاء هذا الموت لم ألف حاجة　　لنفسى إلا قد قضيت قضاءها !

فلسفة التصوف ... والمذهب المادى

من تزاوج الغلو فى الدين والزهد فى الدنيا ، ولدت فلسفة التصوف فكان نتاجها العقلى أسوأ ما أصاب التفكير الدينى من شلل وانطفاء ، إذ وجد رجال يركّبون من أسماء الله وصور العبادات وشتى الأوراد ، أدوية للنفوس ، كما يركّب الدجالون من أدعياء الطب أدوية الأجسام من العقاقير والحشائش المجهولة فتريح الناس لا من آلام المرض بل من تكاليف الحياة نفسها . وعلى هذا النمط شرع رجال الطرق من الدين مالم يأذن به الله، ووصفوه للأمم على أنه العلاج الناجع فكان السم الناقع إذ دخل به على صميم الدين فساد كبير . وقد شعر أئمة الإسلام بما تنطوى عليه فكرة التصوف من أغلاط تمس جوهر الرسالة التى دعا إليها القرآن فأعلنوا عليه حرباً شعواء وخاصموا رجاله الذين انتموا إليه عن ثقة به أو لإصلاح أمره وإقامة عوجه ، بيد أن المعركة انتهت بهزيمة التفكير السليم الناضج — للأسف العميق — واستطاع أغبياء المتصوفة أن يلووا عنان الإسلام عن نهجه العتيد إلى نهجه الجديد الزائف ، وانبعثت مرة أخرى الرهبانية التى كان الإسلام أول عهده قد قضى عليها وأصبح همّ العامة أن يترددوا بين بيوتهم والمسجد ، وأن يأخذوا من الحياة ما يسد الرمق

فحسب . . . وأصبحت كلمة التدين عموماً تعنى كل شىء إلا تأسيس الحضارات وإقامة النهضات وبعث المدنيات ثم ظل معنى الكلمة يهوى حتى صار التدين سبّة يأنف الأذكياء من الاتصاف بها . . . ودين الله برىء من هذا المجون وذلك الجنون . وهو فى حقيقته الناصعة أشرف من أن يؤخذ عن أفواه الحمقى! وقد أبنّا لك عن نواح صادقة من جوهره الأصيل . . وكان رد الفعل لهذه الرهبانية المتصوفة التى صبغت الدين أن اتسع نطاق المذاهب المادى للملحد وغلبت نظرته للحياة غيرها من سائر النظرات ، واتجه العالم اتجاهاً آلياً بحتاً فى تصويره للإنسان وتقديره لجهوده، كما اتجه نفس الاتجاه فى فهمه للطبيعة وتحليله لعناصرها وفى وضعه للعلوم وسيره بمناهجها ! وانطلق الناس فى هذه السبيل لا يلوون على شىء . . يدوسون تحت أقدامهم المخلفات الدينية التى قد تصادفهم أو يركلونها لتختفى من أمامهم فى جانب مهجور من جوانب الطريق حتى لا تعوق تيار الحياة الذى تحرك ولا يريد الوقوف ! وقد اعتنقت الرأسمالية والشيوعية كلتاهما المذهب المادى واستراحتا إلى فكرته ، إلا أن الرأسمالية كانت ألأمَ فى معاملتها للدين فضمته إلى معسكرها ، ولكن بعد أن شوهت وجهه ومسخت ملامحه واطمأنت إلى أنه سيقبل الهوان فى كنفها وأنه لن يقف يوماً ما فى طريق أطماعها . . . أما الشيوعية فلم تجد ما يلجئها إلى تمثيل هذه الأدوار الهازلة . . .

ونحن نتساءل أتلك نهاية المطاف ؟ أتثوى الفطرة الإنسانية الحرة الذكية فى هذه المقبرة المظلمة ؟ وهل يقف الضمير الإنسانى هذه الوقفة الذليلة الجاحدة متنكراً لربه ودينه وخلقه معتذراً بأن بعض الرجال الذين يمثلون الأديان هم الذين أكرهوه على هذا الموقف ؟

إن الإسلام النابع من الفطرة الصحيحة المنبثق من الطبيعة السليمة الذاهب مع مسارح الفكر اليقظ كل مذهب ، المغتبط بنتاج العقل الرشيد أيما اغتباط ، يأبى على الناس هذا الشرود والتبلبل ، ويقر معهم مادية الحياة ثم يذكرهم بمعنوياتها التى لا يليق أن تنسى، أو يقر معهم حاضر الدنيا ولكنه يذكرهم بمستقبلهم فى الآخرة ، فما أحقر الوجود الإنسانى لو كان نصيبه الأول والأخير هذه السنوات التى يحياها المرء ثم يختفى بعدها تحت الثرى إلى غير معاد .

جسد وروح ، مادية ومعنوية ، ودعونا من فلسفة التصوف الغبىّ ومن فلسفة المادية الصغيرة .

مقيـــاس دقيق

لم يجعل الإسلام كثرة العبادة دليل التقى والعفاف ، فإن القلب وحده موضع التقوى . واستقامة الضمير الإنسانى وارتقاؤه هما الكمال الحق والخير المنشود . وقد حذرنا النبى صلوات الله عليه وسلامه من أقوام عبادتهم كثيرة وظواهرهم مغرية « تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم . وقراءتكم إلى قراءتهم . . . ويمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . من قاتلهم كان أولى بالله منهم» ودعوة الإسلام إلى منابذة هؤلاء المتعبدين الدجالين تنطق بمقته للمظاهر المكذوبة ، وتدل على أن كل بناء لا يقوم على الضمير الزكى المستنير فهو بناء مشيد على دعائم من رمال . كذلك لم يجعل الإسلام الإقبال على الدنيا دليل رقة فى الدين أو ضعف فى اليقين . كيف وهو يعتبر التاجر — الذى يكسب ماله بالوسائل الشريفة — فى النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . . ويرى أن من الناس من يستمتع بالحياة فى أنعم صورها فلا يحول ذلك بينهم

و بين أن يكونوا أهلا لرضوان الله وحسن مثوبته : « ليذكرَنَّ الله أقوام فى الدنيا على الفرُش الممهدة فيدخلهم الدرجات العلى » أفبعد هذا يبقى للتصوف بشقيه — الغلو فى الدين والزهد فى الدنيا — موضع يعترف الإسلام به ؟ أو يبقى لهذا اللون من الجنون الدينى أساس يرجع إليه أو سناد يعتمد عليه ؟ لكن المتشائمين من أصحاب الأمزجة السوداء ، والمعلولين من أصحاب الأجسام السقيمة ، والفاشلين فى ميادين الحياة النشطة ، والمنتفعين من نوم الشعوب الحذرين من بوادر اليقظة فيها ، هؤلاء جميعاً حريصون على إلباس الدين أسمالا مزقتها الليالى ، وعلى إنطاقه بتعاليم مجتها الطباع ، ولا نتيجة لها إلا جعل المتدينين فى هذه الحياة أخلاطاً من الصعاليك والرعاع .

الصراع بين الشيوعية والإسلام

تكلمت الصحف أخيراً عن الفجوة العميقة التى تفصل بين المسلمين فى روسيا و بين تعاليم ماركس وفلسفة الشيوعية المادية التى يشرف اليوم على تنفيذها الرفيق ستالين والتى تسود أرضاً مساحتها خمس العالم وتطوى فى غمارها قرابة ٢٠٠ مليون من السكان فيهم ما يربو على الـ ٤٠ مليوناً من المسلمين .

وأول ما يلفت النظر فى الأخبار الواردة من روسيا أن الإيمان فى صفوف المسلمين قد استعصى على كل موجات الإلحاد ومغريات الفساد . وأن هناك أقباساً من أنوار المعرفة بالله لا تزال تتألق فى الصدور النقية برغم ما اقترنت به الثورة الحمراء ، من إنكار على الدين وتنكيل بأهله و برغم أن المسلمين فى روسيا معزولون مادياً وفكرياً عن إخوانهم فى أنحاء العالم . و إنه لما يثير الإعجاب أن يبقى إخواننا من المسلمين الروس ثابتين راسخين كالبحيرة التى انقطعت عن المحيط العام ، ثم لم يدركها جفاف ولم يظهر لها قاع بل ظلت

جارفة التيار سيدة القرار ، وقد ذكرت جريدة المصرى أن هناك معركة تدور في الخفاء بين رجال الدين الإسلامى و بين رجال الحزب الشيوعى. وأن هناك إصراراً من أولياء أمور الطلاب المسلمين ألا يلقنوا أولادهم العلم فى مدارس لا تحترم الإسلام ، ولا تشيد به وأن السلطات الدينية فى أواسط آسيا تستنكر من الدستور السوفيتى المادة التى تمكن كل فرد من الدعوة للآراء التى يراها حتى ولو كانت معادية للدين والتقاليد القديمة ، إذ أن هذه المادة قد استغلها المتطرفون ضد الإسلام فى البلاد التي تخرج منها ابن سينا وغيره من فلاسفة الإسلام . . !

الحملة على الإسلام

وكان ميسوراً لدعاة الإلحاد أن ينشروا المقالات المطولة فى الصحف لمحاربة الخرافات الدينية ! ونحن ننقل نبدأ من عبارات الكتاب الذين ترجمت لنا أقوالهم لنقف على طرائق تفكيرهم وعلى قيمة الأسلحة التى يحاربون بها الدين حتى نحدد موقفنا كما يجب منها .

قال كاتب فى جريدة « سوفييت كرجيزيا » (إن الدين ألعوبة فى أيدى الرأسماليين . وإنه فكرة نسعى لإقناع الطبقه العاملة بحب الذين يستغلونهم استغلالا لا رحمة فيه . وأنه ليس ضد العلم فحسب بل إن مظاهره الخارجية من صلاة وصيام تقلل ساعات العمل فى المزارع التعاونية بالجمهوريات السوفيتية وتخفض إنتاجها وتقضى على النظام الدقيق الذى وضع للعمال وهذا مالا يدركه كثيرون من رجال الدولة المسلمين حتى زعماء الحزب الشيوعى منهم . وهذا خطر يهدد النظام السوفيتى فى بلاد آسيا الوسطى بوجه خاص .

هذا الكاتب يصور بدقة التهم التى توجه للاسلام . . وهى تهم موغلة

فى الافتراء ولو وجدتُ لها والله ظلا من الحق ما كابرت فى الرد عليها . فإن تعاليم الإسلام لا تجعله ديناً يخدم الرأسمالية بل يخذلها ويناصر الطبقات الكادحة ويصون حقوقها ويدفع عنها كل عادية ويحضها على مقاتلة أىّ من الناس تحدثه نفسه بالافتيات عليها ونهب مالها . والإسلام يجعل القتيل فى معركة الحقوق شهيداً والقاتل مجرماً يخلد فى النار . والاشتراكية الإسلامية التى تستأصل الطبقات المترفة وتأبى وجود أى أثر للجوع والجهل والهوان لايمكن البتة أن توصف بأنها تقنع العمال بحب ظالميهم والرضوخ لمستغليهم كما يزعم هذا الكاتب الجاهل بالإسلام .

واجب الأزهر

على أن طبيعة الإسلام الصافية قد عكرتها طبيعة بعض الرجال الذين يعملون له فى هذا العصر . وعلى الأزهر أن ينعطف نحو الشعب ونحو الفقراء وأن يهتم بدراسة مشاكل الجمهور الاقتصادية دراسة تحرج الطبقات التى أقامت كيانها على إذلال الطوائف العاملة وتجويعها وأكل حقوقها وغصب أراضيها ، وإنه ليحزننا أن نقول إن التصريحات والافتاءات التى نشرت أخيراً لم يكن لها أثر ترتاح إليه نفوس المتتبعين للحركات الإسلامية ، وقد قمت شخصياً بواجبى فى الرد عليها حين صدورها . والمهم أن نعلم بأن الإسلام متهم بأنه ألعوبة فى أيدى الرأسماليين . وأن هذه التهمة بعيدة عن جوهره ولكنها تلتصق به إذا سكت رجاله عن محاربة النزعات الاستغلالية ومجاهرة أصحابها بالعداء .

أما قول الكاتب الروسى بعد ذلك إن العبادات تعوق عن العمل

والإنتاج ، مما يؤثر فى مقدرة روسيا المادية فهو هراء كسابقه . فإن الصلوات التى فرضها الإسلام لا يستغرق أداؤها ثلث ساعة من الأربع والعشرين ساعة . وساعات العمل فى اليوم كله تبلغ ثمانى ساعات بل إن أسبوع العمل فى كثير من الدول لا يزيد عن أربعين ساعة .

بيد أن هذا الكاتب يطعن على الإسلام من تصرفات بعض المتنطعين من الصوفية والسبكية وأشباههم من الفرق التى قد تزهد فى العمل وتغالى فى العبادات وتشتغل فقط بالأحزاب والأوراد وتسىء بمسلكها الخاطىء إلى سمعة الدين وأهله .

وواجب الأزهر إخضاع هذه الفرق الشاردة له و إلزامها طوعاً أو كرهاً مبادىء الإسلام ومناهجه . فإن أفكار العامة قد بلبلها طول الاختلاف وقلة المراجع الحاسمة . ونحن لا نحب أن يظن بالعبادات الإسلامية أنها عائق عن الانتاج المادى والأدبى ، أو أنها قيود مفروضة على النشاط الإنسانى فإذا كان مسلك بعض المسلمين سوف يتدرج به إلى إلصاق هذه الظنون بالإسلام فليس على الأزهر حرج قط إذا احتاط لهذا الأمر .

قد أتصور فى الفاتيكان أن يحارب الشيوعية بالعظات يوم الأحد وأن يبث القساوسة فى البيوت والأندية لهذا الغرض . أما الأزهر — وهو ممثل الإسلام — فسبيله إلى محاربة الشيوعية معالجة الأمراض الاجتماعية ووصف الدواء الناجح لها من تعاليم الدين ، والقيام بحملة جهيرة الصوت على الخلل الخلقى والاقتصادى الذى يجعل فى بلادنا حفراً عميقة يملؤها السيل الشيوعى فى أول مد له ! ! فالفيضان العالى يكافح بتعلية الشواطىء والشيوعية تكافح بتعلية المستوى الاجتماعى وهذا ما يجب أن يصرخ الأزهر به فى آذان الغافلين . . ! !

وجود الله

ونشرت جريدة « تركنسايا » التى تصدر فى جمهورية التركمان الإسلامية مقالا لمدير بيت الثقافة تساءل فيه :

هل الله موجود فعلا ؟ ثم رد على سؤال نفسه فقال : لا أستطيع أن أقول : إن كان الله موجوداً أم أنه ليس بموجود !!! ولكننى مقتنع اقتناعاً تاماً بأن هناك قوة عليا تدير العالم . !

وما كاد الكاتب ينشر هذا المقال حتى هاج عليه الشيوعيون وحملوا عليه حملة شعواء ، وقالوا إن مقاله يتناقى مع التعاليم الماركسية . . .

يا عجباً . . إن هذا الكلام اعتبر تديناً فى البيئة الملحدة ! وهو يعتبر كذلك إلحاداً فى البيئة المتدينة .

وهو إن دل على شىء فعلى الأزمة العصيبة التى يمر بها الفكر الإنسانى لا فى روسيا وحدها بل فى سائر أقطار الغرب بل بين بعض الناس فى مصر والشرق . وقد قرأت أخيراً أنباء الإلحاد فى كتاب الله والتهجم على مقدسات الإسلام ، و إننا لنعلم أن من الموظفين فى وزارة المعارف من أخذوا أجازاتهم العلمية من جامعات باريس على أساس الطعن فى القرآن والنبوة .

وهذه الحالة المنكرة يجب أن يواجهها الأزهر بأساليب جديدة من التوسع العلمى فى الدراسات النظرية والعالمية معاً . ولقد حدث انقلاب فى برامج الدراسة بالأزهر على عهد الشيخ المراغى رحمه الله بتر كثيراً من علوم الرياضة والطبيعة والإحياء فى القسم الثانوى وهذا لعمرى خطأ بالغ . فالعالم الأزهرى أحوج إلى التعمق فى هذه النواحى منه فى حواشى الفقه واللغة التى أساءت أكثر مما أحسنت إلى الفقه واللغة ؟

وقد أضيفت بعض المواد إلى كلية أصول الدين لتدعيم مستواها الثقافى . وعندى أن من الضرورى إعادة دراسة سنن الله الكونية ونقد المذاهب الحديثة والتوسع فى دراسة علوم النفس والتربية . حتى نستطيع مواجهة تيار الإلحاد بتيارات أخرى تربو عليها علماً بالحياة والأحياء وعجائب الكون فى الأرض والسماء .

إن الإلحاد يزحف فى بطء أو على عجل . ونحن أمام الله مسئولون عن مواجهته . وليس يفيد فى ذلك الإنكار والعويل بل يفيد فى ذلك أن نواجه التجديد بتجديد ولا يفل الحديد إلا الحديد .

أخوة فى الدين واشتراكية فى الدنيا

خلق الله الناس من نفس واحدة وجعلهم فى الحياة سواسية ، وحمّلهم أعباء المعايش جميعاً كيما يكابدوا السعى لها ، وعرضهم للفشل أو النجاح فى الحصول عليها ، بعد ما وضعهم على قدم المساواة أمام فرصها المتكافئة بالنسبة لهم كلهم ، « ليهلِكَ من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة » ! غير أن الإنسانية فى أغلب عصورها لم تحفل بهذه الحقائق جملة فلا أخوة البشر العامة ، ولا حقوق المساواة العادلة ، ولا الفرص المتكافئة لشتى الأفراد ولا المعايش الكافلة لحياة الناس ، لا شىء من ذلك استطاع أن يسود العالم سيادة القوانين الطبيعية المنتظمة فى وقوعها انتظام الليل والنهار . بل كان العدل يظهر حيناً والظلم يفلت أحياناً . وكانت الحقائق الآنفة تطل على العالم بوجهها الجميل قليلاً ثم تختفى لتحل مكانها أشباحاً مجرمة للطغيان والفوضى والاستهتار . وسجل تاريخ الإنسانية أن بعض البشر تطاول كثيراً جداً فوق مكانه فزعم أنه إله البشر الآخرين ، ونسى — أنه وهم إخوة — وحكى

القرآن عن فرعون هذا الطغيان الفردى ، وقد كان منطويا فى الوقت نفسه على طغيان اجتماعى وسياسى عندما قال لجمهور المسلمين : « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي » . . « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » .

ثم تقدمت الإنسانية قليلاً واستحيى الطغاة أن يزعموا لأنفسهم الألوهية ، ورفضوا كذلك أن تتكافأ دماؤهم مع سواهم من الناس فوصفوا ذواتهم بأنهم ظلال الله فى الأرض ، وقرروا أن لهم حقوقاً مقدسة لا يجوز التطاول عليها وكونوا طبقات نازعت الله صفات الكبرياء والجلال والعظمة وكلفت الشعوب المهضومة أن تدفع تكاليف هذه الأوهام بالدم والمال .. ثم تقدمت الإنسانية قليلاً وبدأت تطرح عن عاتقها الأثقال التى بهظتها واستمعت إلى صوت « القرآن » وهو يقصم ظهور الجبارين ، ويدمدم بأن السيادة لله وحده وأن البشر كافة عبيد أذله : « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا » ثم استمعوا إلى صوت نبيه : « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » . فبدأت الدنيا تنتعش من رقود . وتتخلص من قيود . وتتبرأ من سيد ومسود . غير أن شهوات الاستعلاء والتأله القديم ما فتئت تنبعث من جحرها لتلدغ العالم ثم تأوى إلى وكرها . وما وكرها إلا ما علت من طوائف المستغلين والمستذلين ، تارة باسم الدنيا وتارة باسم الدين ، فلنصرخ فى وجوههم بالحق المر : إن الإسلام أخوة فى الدين واشتراكية فى الدنيا .

فى هذا الكتاب

للمؤلف

١ – الإسلام والأوضاع الاقتصادية .
٢ – « والمناهج الاشتراكية .
٣ – « المفترى عليه . .
٤ – « والاستبداد السياسى .
٥ – تأملات فى الدين والحياة .
٦ – من هنا نعلم .
٧ – التعصب والتسامح فى الإسلام .
٨ – عقيدة المسلم .
٩ – خلق المسلم .
١٠ – فقه السيرة .

تحت الطبع

١ – فى موكب الدعوة

الثمن ١٢ قرشاً